الأوان...

الأوان...
رواية

تألـيف : بلقيس حميد حسن
الطبعة الأولى : 2021

جميـــع حقـــوق النشـــر محفوظـــة ولا يحـــق لأي شـــخص او مؤسســـة او جهـــة، اعـــادة إصـــدار هـــذا الكتـــاب، أو جـــزء منـــه، أو نقلـــه، بـــأي شـــكل أو واســـطة مـــن وســـائط نقـــل المعلومـــات، ســـواء أكانـــت الكترونيـــة أو ميكانيكيـــة، بمـــا فـــي ذلـــك النســـخ أو التســـجيل أو التخـــزين والاســـترجاع دون إذن خطـــي مـــن أصحاب الحقوق.

منشورات تـــأويـــل للـــنشر والترجمـــــــة
Taawielförlagpublikationochöversättning

0046737405443
Sweden Öerbro
Örebroskonstochkultrförening

البريد : dar.taweel2018@gmail.com
taweel.dar@yahoo.com

جـــميع الآراء الـــواردة في هـــذا الكتاب تعبرعـــن رأي كـاتبها ولاتعبر بـــالضرورة عـــن رأي الناشـــر.
ISBN:978-91-986455-7-6

بلقيس حميد حسن

الأوان...

روایة

منشورات تأويل

اللوحة للفنان الراحل : كمال خريش

الإهداء

الـى روح أمـي نعيمـة أحمـد البحرانـي، مدرَسـتي الأولـى، الموسـوعة التـي حفظـتُ منهـا الكثيـر مـن الأشـعار، الحِكَـم، الحكايـا، وأحـداث التـأريخ، بوقفاتـه المحزنـة أو المفرحـة التـي جـادت بهـا ذاكرتهـا عليَّ..

و

إلى كل الأمهات الحزينات في زمن التيه هذا..

بلقيس حميد حسن

ملاحظة

شخصيات الرواية لاعلاقة لها بالواقع، وان كان هناك أي تشابه باسم أو حدث فهو صدفة...

لو كان العالم في كفة، وأمي في كفة، لأخترت أمي.

جان جاك روسو

أمي بصحة جيدة، من هو العالم لأحزن من أجله

نجيب محفوظ

لا فائدة من تحقيق الأمنيات بعد فوات الأوان.

لا أدري كم مرّ من الوقت عليَ بعد أن انتبهت من غيبوبة لا أعرف متى بدأت. وجدت نفسي محاطا بخراب رهيب وكأن الأرض تعرضت لكارثة طبيعية أو ربما غير طبيعية، لكنها تبدو وكأنها أنهت الحياة على الأرض تقريبا.

أشعر بثقل جسدي، صداع يملأ رأسي وكأنه سينفجر.

ما زال دويّ غير محدد يرنّ بأذني كنفير مفزع لا أستطيع إيقافه.

كل شيء من حولي كالح، طعم فمي ترابي لاذع .

كل شيء موحش، مخيف، متوقف، وكأن قلبي قد دق كثيرا وبجنون ثم خمد. كأنني حملت الدنيا على رأسي فأرهقني حملها، أو كأن الأرض دارت دورات أسرع مما اعتادت، كأنما أصيبت بالدوار من كثرة دورانها لملايين السنين فسقطت محطمة، هكذا تخيل لي وأنا أرى الدمار المهول من حولي..

حاولت فرك عيني ليتبين المشهد أمامي بكل هذا الرعب الذي يلفه، بالكاد فتحتهما، لكن جسدي ثقيل ولا يطاوعني بالتحرك.

انتبهت الى نصفي الأسفل، وجدته محشورا داخل حفرة مليئة بالأحجار والحصى. رأيتُ قدميَ قد علقتا بشيء ما يشدني الى الأعماق. فوق رأسي

زاوية أسمنتية، كأنها فصلت من غرفة بشكل مقصود لتحيطني كقالب، وكسقف لتلك الحفرة.

حاولت الخروج من الحفرة جاهدا بعد أن بذلت كل مابقي لي من قدرة على البقاء لأتحرر .

قويت عزيمتي لاكتشاف سر ما حصل ويحصل، ولم أصل لفهم أي شيء.

بعد جهدٍ استطعت الخلاص من عمق الحفرة وكم كان ذلك مؤلماً.

أزحت الأسمنت والحصى عني، دفعت بالزاوية بعيدا. لكن الدماء تسيل من مناطق عديدة بجسدي، أما روحي فذاهلة ولا أدري هل هي معي أم انها هائمة في عالم عتمة آخر غير ما أرى.

لم أخرج من الحفرة إلا بعد صراع مضنٍ ومحاولات موجعة وبعد عناء، إحباط، وفشل، وتشبث بالحياة.

أتذكر أن الناس تحدثوا عن النهاية قبل هذا اليوم، قال بعضهم أن طوفانا كطوفان نوح سيغرق العالم، وقال آخرون أن الله سيقلب قطب الأرض وتشرق الشمس من المغرب، وقالوا أيضا أن كوكبا عملاقا أكبر من الأرض بعدة مرات أسموه نيبيرو، سيضرب الأرض ويحطم كل شيء. هناك من تنبأ ببركان ضخم سينفجر منهياً الحياة على الأرض، وهناك من قال أن مرضا يعجز عنه الطب سيبيد البشر ويقضي على الحياة ببطء...

كتبوا كثيرا، نشــروا، اختلفوا، وتناقشــوا، ولكن، ما الذي حلّ بالأرض حقا ؟ لا أعلم..

لا أدري كم غبت عن الوعي، يوما، ساعة أو دهرا ؟

كل ما أتذكره أن صــوتا مرعبا صــمّ أذني وارتميت كمن رفعني الى الأعلى وضربني بالأرض، كم مر من الوقت ياترى ؟

وبأي يوم نحن ؟

وبأي أرض أنا الآن ؟

هكذا وجدت نفسي وقد غطت الخدوش والجروح جسدي ووجهي.

الأرض الآن تبدو خربة، وأنا بين الخرائب والنيران. إضـافة الى جروحي، يغطي جسدي رماد كالأسمنت، لا أستطيع فتح عيني إلا بصعوبة..

أين الناس ؟

أين ابنتي التي أضعتها عدة مرات ؟

كنت بحثت عنها قبل هذا الخراب ولم أجدها، ســأبحث عنها بعد الخراب، وسأبقى أبحث عنها أبداً، لدي شعور أنني سأجدها رغم استحالة الأمل.

ألأرض تبدو الآن متاهة كبرى. هل الكارثة كونية ؟

أبحث عن ابنتي بين الخرائب طوال الوقت، يهدني التعب والجوع. أسير بين تلك الأنقاض، والحفر، والدخان، تدفعني رغبة كبيرة لوجود ابنتي فأستمر بالبحث بلا توقف .

هل يوجد دول وحكومات وحدود وجيوش ؟.

لا أدري، لكنني لا أرى شرطة، أو مؤسسات إنسانية، ولا أرى أي بشر .

كان بجيبي دفتر جيب صـــغير وقلم، عجبت لوجودهما إذ رغم كل هذا الهول بقيا على حالهما، ورغم تمزق ثيابي ورثاثتها بعد كل مامر علي والذي أجهل سببه تماما.

هل هذه رسالة كونية لي لأكتب كل شيء عن الخراب، أو لأعترف بذنوبي كلها وأتطهر منها ؟..

سأكتب هنا كل شيء كما هو، وبكل صراحة.

ســـأعترف بأنني تمنيت الخراب للأرض منذ زمن، تمنيت موت أغلب الناس، وتمنيت بقائي مع القلة الناجية.

.....

اسمي سالم باقي يحيى

حلمت بأن أكون ذا شأن وشهرة، لكنني لم أستطع إيجاد مكان قدمٍ لي يجعلني كما أستحق وكما حلمت أن أكون، فبالرغم من طموحي الكبير، وبرغم ما حققته من نجاحات باهرة، لم أصبح كما أردت.

أنا أديب فذ، حســـب اعتراف كثير من المثقفين، البعض يدعونني بمفكر .

أهم ما كان يشـــغلني ليل نهار هو حصـــول كارثة بيئية تنهي الحياة على الأرض تقريبا، تدمر غالبية الجنس البشري، لا تبقي ولا تذر غير حفنة من

الناس لا يجدون من الكتب والابداع الا مانجا من الدمار الهائل الذي ضرب الأرض وسيكون كتابي وحده هو الناجي من الكتب.

لابد لي أن أكتب كتابي، وأحفظه من الضياع مهما كلفني الأمر، سأعلقه برقبتي كي لايضيع مني، وسأكتب به كل شيء، سأحتفظ به كما لو كان أعز من روحي.

سأكتب من جديد، فكتبي التي كتبتها لم تنتشر كما حلمت، وكتابي الأخير لم أبع منه نسخة واحدة، لكن كتابي هذا الذي سأكتبه وأنا في هذا الخراب سيكون أشهر الكتب في المستقبل..

آمنت أن الحياة دورات، بشر يجيئون، يبنون حضارة معينة، يظلمون سواهم، تخرّب حضارتهم بأيديهم أو بفعل السماء لا أدري، لكنني سأكون في دورة الحياة المقبلة أشهر أديب في العالم.

ستدرس أفكاري في المدارس، سيترجم كتابي هذا الى كل اللغات بعد أن لا تجد الأقلية الباقية في كل بلد أمامها غيره وتبجله وقد يقدس ويصبح كتابا مقدسا للبشر جميعا ..

سأكون في دورة الأرض الثانية أشهر من شكسبير، وغوتا، وماركس، وسقراط، وافلاطون، وابن سينا، والشيرازي، والمتنبي والأنبياء، سيعرفني الناس جميعا، ستنتصب تماثيلي في الساحات العامة، ستُسمى أشهر الجامعات والمدارس باسمي..

إذاً، كان حلمي يستحق أن يشغلني كل الوقت قبل أن تحل الكارثة.

الآن ربما لســت الناجي الوحيد، فقد يكون الباقي من البشــر ضــئيل العدد، لكنه للأسـف متفرق في الأصـقاع وماوراء البحار، وقد يتجمع في مدن مستقبلا، من يدري ؟.

سـأكتب كل شـيء، أنا الآن الشـاهد الوحيد عما حلّ بالأرض هنا في هذه البقعة الشاسعة منها ..

ســأكتب عن نفســي منذ الولادة، فأنا الكاتب، بطل الرواية الذي تمنى انتهاء الحياة على الأرض وتحققت أمنيته..

عندما ولدت، كانت ولادة أمي عسيرة جدا، وقد أضفت لوجعها بعد ذلك قهرا جديدا هو عاهتي فقد كنت أخرس، أسـمع ولا أجيب، لكني أضـمر للناس في قلبي، وأجيب بأفعال خبيثة على ســخرية الأطفال من أقراني في الشارع .

يضحك على عاهتي عادل ابن جارنا، يحفز الأطفال على احتقاري وضربي بالحجارة أحيانا، لا أستطيع أن أرد عليهم لأنني أخرس، لكن عندما تُرمى الكرة بعيدا، أركض كالســهم لها ألتقطها وأدخل بيتنا لأمزقها بســكين المطبخ، أرميها عليهم وهم ذاهلون فيكرهون اللعب معي مرة أخرى.

مســكينة أمي تقســم لهم بأنها ســتكون غلطتي الأخيرة وترجوهم أن يقبلوني، فيوافقوا اشتراكي باللعب معهم على مضض.

أذهب للعب معهم فأســمع اصــواتهم، كلامهم، وألمس بروحي وعيني تهميشــهم لي، اذ لايؤخذ رأيي في شــيء من أمور اللعب، حينها يتأجج الحقد بداخلي..

كنت عندما نلعب كرة قدم، ويدّعي أحد الأطفال أنني ضــربته بيدي ويفرض على فريقي ضــربة جزاء، أفكر بنوع الأذى الذي أصــبه على ذلك المدعي.

بعض الأطفال ينسى ويغفر لي من باب انكسار الخاطر والشفقة وبعضهم يترصدني بحجارته..

كنت أشعر برغبة موت كل الأطفال، أو صمتهم كما أصمت أنا ولا أضطر بعد ذلك للبحث عن أساليب أؤذيهم بها.

لست حقيرا كما تظنون فأنا كنت أدافع عن نفسي.

هاهو حلمي يتحقق..

الآن انتهى كل شــئ، وماكنت أتخيل معنى ما أتمنى، فالكلمات أحيانا تكون مبطنة المعاني، أو هي مجردة وجامدة، أو أن خيالي ليس مؤهلا للتصور، لأني ماكنت أصدق أن امنيتي ستتحقق..

المرارة الآن في حلقي، والجروح ما زالت طرية. كل شئ غامض، مربك، موجع، ومرعب..

كالمشــلول أنا بقلب هذا الخراب المهول، لا فكرة الآن تفيدني أو عمل يشغلني أكثر من هجوم الذكريات عليَّ، يدنيها شعوري باقتراب نهايتي.

سـأكتب حياتي قبل وبعد الخراب في دفتري الذي سيكون كتابي الأهم، وكتابته قد تلهيني عن الخوف وانتظار المجهول ..

حينما أصبحت بعمر تسع سنوات أخذتني أمي إلى شيخ في المنطقة اسمه سالم، كان اسمي قبلها ناصر، أتذكر ذلك اليوم ولن أنساه أبدا، فقد غير ذلك الحدث حياتي ونقلها الى شيء آخر ماكنت أحلم به مطلقاً ..

كان ذلك اليوم ربما هو أهم يوم عندي، فبسببه عرفت المساواة مع بقية البشر .

جرجرتني أمي الى بيت الشيخ وأنا أصرخ، أبكي وأمسح مخاطي في كمّ قميصي، تمسك أمي يدي بقوة قائلةً:

سآخذك للشيخ سالم ليفك لسانك، قالوا انه شاطر ومبروك.

كانت أمي تتحدث بفرح وأمل، وأنا أخاف مما سيحلّ بي.

اسمع أن هناك عمليات جراحية موجعة في المشافي ، بها دم، وبتر أعضاء .

أرتجف هلعاً وأبكي، تسحبني أمي وتسكتني دون علمي بكل ما سيحصل، والى أين سأذهب بالضبط .

سرنا بطريق زراعي طويل. كانت أشجار النخيل تمتد على الجانبين بكثافة. لم أكن أرى سوى النخيل الأخضر ولا غيره، عدا سواقي المياة ونواعير البساتين التي تدور بكسل، نواعير تديرها الحمير المجهدة والمعصوبة الأعين، خريرها يرسل صوتا متململا لكنه يمنح النفس شعورا بالأمان والديمومة للحياة، ذلك الصوت كأنه غناء الماء حبا بالأرض والحياة، كنت اسمعه يقول :

عيشوا ولابد لكم من التحدي والاستمرار..

يد أميّ تمسك معصمي بقوة، لكن صوت السواقي ينسيني قبضة أمي الصارمة، فأشعر براحة رغم خوفي من المكان المجهول الذي تأخذني اليه.

كانت الأرض قبل الكارثة جميلة جدا، وكان ذلك الطريق النخيلي الأخضر يبهر العين ويبهج النفس، كأنه شيء من بداية الحياة، أو هو روح الأرض التي ذهبت ولَم أعد أعلم الآن أين أنا وبأية بقعة، والأرض ربما قد انقلب محورها وماعادت الأماكن كما هي.

أتذكر تلك النخلات الطوال التي رأيت عليها فلاّحا يتسلقها رغم طولها الشاهق، يتسلقها جالساً على كرسي من سعف النخيل المنسوج، قدماه تمسكان الجذع من الجانبين ومقعده يستوي على هذا النسيج المربوط بحبل يحيط بجذع النخلة، يداه تتسلقان وتسحبان الحبل الى الأعلى، ولشد ماعجبت من هذا الأختراع البدائي وحسدت شجاعة الفلاح الذي يسمونه حاصوداً، إذ هو بهذه الطريقة الخطرة يحصد الرطب من أعلى النخلات، فكان منظره وهو بعيد عن الأرض لايشبه منظر الانسان، إنما أقرب لطيرٍ أو قردٍ تسلق النخلة، أو هو من الزواحف التي تصعد بأربعة نحو الأعلى، كنت في سري أقول لو أنني أستطيع رميه بحجرة تربكه فيسقط.

هكذا أنا منذ الطفولة أفكر بالخلاص من الناس لأرتاح منهم.

لو أن البشـر عرفوا ما أراه اليوم من خراب، أكوام حجر، فحم، بشـاعة، ونيران مشتعلة بحفر متفرقة، لما فرطوا بجمال الطبيعة وسحرها.

لم يبق الآن سوى الذكريات، سأسجل كل الجمال الذي زال وأكون رائدا في وصف الأرض المقتولة، هكذا سأسمي كتابي، نعم الأرض المقتولة، سيكون مشهورا أكثر من كتاب إليوت، الأرض الخراب ..

لأعد لذكرياتي كي أدونها، لحظة بلحظة، لأتذكر تماما معاناتي، ولأكن كما أنا قويا قبل وبعد خراب الأرض.

تطرق أمي بابا خشبيا كبيرا، أكبر من باب بيتنا، يفتح الباب، فنجد داراً بفناء كبير تحيطه الغرف العديدة المبنية بطريقة مملة وعلى نمط واحد، بأبواب خشبية مصبوغة باللون الأخضر. أرضية الفناء عارية من البلاط، ترابية، لكنها نظيفة ومكنوسة باعتناء.

في وسـط الفناء توجد شـجرة توت ضـخمة، ترتفع لتعلو عن الأرض فأمدّ رأسي كله الى الوراء لأرى شاهقها.

أطلّت علينا من إحدى غرف المنزل امرأة عجوز نحيفة بوجه ممصـوص شـاحب، وذقن دقيق به شـعيرات كالزغب، بأنف معقوف، يذكرني بصـورة السـاحرات في القصـص التي كان يجلبها بعض الأطفال حينما نجلس على عتبات البيوت ذات السلالم لنتفرج على تلك القصص الملونة والمزركشة، بعض رسومها مجسمة، ما ان تفتح الصفحة حتى يطل رأس ديك من مزرعة، أو وجه أميرة نائمة في ناموسية من الدانتيلا، كم كانت تسـتهويني تلك القصـص، وكم كنت أتمنى أن أقتني واحدة منها، ولكن

من أين لي بذلك وأنا الأخرس الذي لم ير مدرسة بحياته، ولَا يعرف أن يفك حرفا واحدا مما في تلك القصص الملونة، الزاهية، التي كان وجه الساحرة في بعضها مرفوعا الى الأعلى وهي تركب مكنسة لتطير.

هجمت على فكري تلك اللحظة كل الصور التي رأيتها في القصص، فوجه هذه المرأة أيقظها جميعها، ليزداد خوفي..

الآن أين أنا من كل الخوف الذي مر بي بحياتي!

كنت أكتب كلمة الخوف بلا خوف، أما الآن فأعيشها بما لا يصدقه أحد سواي، حيث يلفني هذا الخراب غير المتوقع.

أعود لأستحضر ذلك اليوم حيث حيّتنا تلك العجوز، وسألتْ أمي عن مرادها، فأجابتها بأنها سمعت كثيرا عن الشيخ سالم وبركاته الكبيرة، ثم شرحت لها مشكلتي.

كنت أدير وجهي مرة لتلك المرأة التي تشبه الساحرات فأرتعب، ومرة لأمي، لكني حينما أدير وجهي لأمي أشعر بالأمان.

طوال الدقائق التي تحدثتا بها عني، كان رأسي يفتر بين وجهيهما كرأس القطة التي ترى فأرين على الجانبين.

قادتنا المرأة الى أكبر باب من أبواب ذلك المنزل. دخلنا غرفة مملة الترتيب، لون بابها الأخضر أحدث صبغة من بقية الغرف. كان الشيخ الذي تقصده أمي يجلس أمام موقد من حطب، إذ البرد قد دخل منذ أيام، سلمت عليه أمي بحرارة وخجل، ثم بدأت تشرح له قصتي مع الخرس مضيفة قهرها من صمتي، وقهرها من رؤية معاناتي مما ألاقيه من

الأطفال واحتقارهم لي، أو من تعاملهم القاسي معي أحيانا رغم كل محاولات أمي العظيمة بتخفيف ذلك عني..

وفجأة، دفعتني الى الشيخ وكأنها خلعتني منها وأنا أرتعد.

صرختُ وتمسكتُ بأذيالها. دون جدوى

أمسكني الشيخ بكل قواه وكأنني عدوه، ربما كان يخشى هروبي من بين يديه.

مذعورا كنت ولا من مهربٍ لي. فتح الشيخ فمي وكأنه يريد قتلي. بكيت حتى ملأت دموعي وجهي. لَم يهتم لدموعي ونشيجي أحد. أخرج الشيخ لساني فظننت أنه يريد قطعهُ، كنت أفتح عيني من الهلع، فرأيته يأخذ بيده الأخرى "ليطة "وهي قطعة طولية مقصوصة من القصب تصبح جارحة إن قطع بها الجلد البشري، كاد أن يغمى علي، ثم وبسرعة خاطفة، قصّ شيئا من لساني وكالومض خرج الدم من فمي. شعرت بالخوار والدوخة. مسح الشيخ الدم ووضع على الجرح دباغا، ثم دفعني الى أمي بقوة وهو يقول لها بصوت الواثق من نفسه :

بعد ثلاثة أيام سيتكلم..

كانت أمي بين التعاطف معي، والخوف علي، والجزع من بكائي، وكأي أم تريد أن يكون ابنها أحسن البشر، حاولت عمل أي شيء، لأكون مثل بقية الأطفال فقالت للشيخ وهي في شك من كلامه:

شـيخنا أقسـم لك بالله العظيم وبالأنبياء جميعا وبكل الأئمة، إذا نطق الولد سأغير اسمه على اسمك وأسميه سالم.

دسّت أمي في يده ما قسم من قطع النقود، وأنا أصرخ ماسحا بقايا الدم من فمي بكمي. أمسكت أمي يدي بحرص أوجعني ومضينا الى البيت ..

بقيت أمي تنتبه لي خلال اليومين التاليين. كانت تسـقيني الحليب والعسـل والسـوائل الدافئة بكثرة، أتت لي بلسـان عصـفور لأكله كما قالت لها الزايرة جيراننا، وهي امرأة تقيّة تعتقد بأن أحلامها رسـائل ربانية، وأنها تقريبا يوحى لها بمشاكل الشارع والناس من حولها.

شـعرت أن أمي تحبني أكثر من قبل فنسـيت بهذين اليومين التفكير بأذية الأطفال..

لا زمن للمعجزات، فقد تحصـل بأي وقت، وهي ليسـت مرتبطة بنبي أو قديس، هكذا تعلمت الكلام ثم القراءة والكتابة، وأصبحت أديباً..

بعد ثلاثة أيام من العلاج، بدأت ألفظ أحرفا كالميم والألف وأقول (ما) فتكرر أمي علي كلمة ماما، أستطعت بسرعة مذهلة أن أنطق هذه الكلمة التي أحببتها بقدر تطور علاقتي بأمي بعد هذا الحادث، وبعد أن صـارت أمي تكرر علي الكلمات بفرح وتلقنني كل ماهو سـهل علي مثل كلمة ماء، خبز، بيت، راح ، خذ، شمس، حتى انطلقت الكلمات من فمي وانحلت عقدة من لسـاني لأنطق بما أسـتطيع أن يفهمني الناس ولو ببطء باديء الأمر، وبلثغة رافقتني طوال عمري حيث بقيت ألفظ الراء غينا، لكنني كنت ألفظ الصـاد ثاء أيضـا، فكانت هذه ميزة وإعاقة جديدة صـارت

لصيقة بشخصي، وهي تفسد علي إحساسي بالمساواة مع أقراني ومع البشر جميعا..

حين خرجت أول مرة للعب مع الأطفال وشاهدوا نطقي الكلمات رغم البطء في اللفظ، رأيت فرحة في وجوههم ودهشة جعلتهم يتحدثون عن حادثة نطق الأخرس.

صار أطفال الشارع ينسجون الحكايا التي تنسجم مع ما كانت امهاتهم قد أخبرنهم عن خرسي بقصص خيالية، وبأن عاهتي هي ميزة لي إذ اختارني الله لأكون آية، فالجن يفهم ما أقصد بدون كلام، ولذلك أنا أختلف عنهم وعليهم الاهتمام بي والاشفاق علي وعدم السخرية مني لأنني انسان مبروك .

جاء ذلك لكثرة ماتوسلتهم أمي لدفع الأذى عني رغم انه لم يفلح غالبا بايقاف سخريتهم، والضحك علي.

بقيت عاهتي مصدرا لجراحي التي يثخنونني بها كل حين، ومصدراً أيضا لنمو حقد دفين بداخلي على الناس، يظهر أحيانا في بريق عيني حينما أصفن بوجوه الناس وأفكر بنوع الرد الذي يجب أن أطلقه مقابل شعوري بالاهانة، وقد يكون مجرد نظرة في عيونهم أحسست أنها تضحك علي وتهزأ بي..

كان الله شاهدا على حجم معاناتي مع خرسي، فلعله أراد مكافأتي فاستجاب لرغبتي بخراب الأرض.

أكبر فرحة لأمي بحياتها هو يوم نطقت.

كانت فرحتها أعظم من الوصف، فقد عملت الولائم، وأفرغت من جيبها الفقير كثيرا من أجل التعبير عن ذلك الفرح.

أمي، ليتك ترينني الآن، وبأي حالة مزرية أنا .

لقد وزعت أمي الحلوى على الأطفال في شـــارعنا، زغردت حينما نطقت جملا كاملة بشـــكل عادي، احتضـــنتني وبكت فرحة لأنني أصـــبحت لا أختلف عن بقية الأطفال الأسـوياء سـوى بحرفين لن يؤثرا على قدرتي على تعلم القراءة والكتابة ..

سجلتني أمي في المدرسة بعد أن أخرجت لي جنسية باسم سالم.

أوفت أمي بقسـمها وغيرت اسـمي من ناصـر الى سـالم كما أقسـمت أمام الشيخ سالم.

ها أنا الآن أســـير بين الصـــخور. أتلصـــص خائفا مما لا أدري. أتعثر بين أحجار حارة كاوية أو حفر فاغرة فاها تريد ابتلاعي. رأســـي فارغ من كل شـــيء، حتى الذكريات لا أســـتطيع الاطراد بها باســـتمرار، بل أتعب من التفكير والهروب نحو الماضي، أتوقف عن كل فكرة وأصرخ :

النجدة. أما من أحد هناك ؟

أشعر بالصدى يعود متكسرا، بعيدا

مخنوقا وكأن وحشا يمسك بالصوت ويبتلعه.

أرفع عيني الى السـماء، أدعو الله، لعله يقول لي شـيئا، أنا ابنه العاصـي الذي لم أعرفه يوما.

أرى صـــخرة تتحرك، أهرع بعيدا عنها خائفا من المجهول، فتســـكن حركتها، أكتشف أنها قد سقطت من علٍ وتحركت.

الوحشة قاتلة.

كيف سأعيش وحدي في هذه الأرض، وهل أنا حقا وحدي؟

كم كنت أردد مقولة جان بول ساتر:

الآخرون هم الجحيم

تعال يا ســارتر لترى الجحيم في هذه العزلة الموحشــة. تعال لتعرف أننا البشـــر قد تفلســـفنا كثيرا بعيدا عن حقيقة الوجود المراد منه التعايش بسلام.

تعـال لتعرف أن الحـب هو الحيـاة، وان صـــوت البشـــر أو الطيور أو الحيوانـات أنيس لنـا ولَم يكن الآخر جحيمـا أبـدا، لكن غفلتنـا أغوتنـا فكلفتنا الكثير..

جلســت لأســترجع ذكرياتي وأنســى ما أنا به. عدت لتذكر أطفال شــارعنا الذين طالما تعرضـــت للضـــرب بأحجارهم، انهم لم ينطقوا يوما اســـمي القديم "ناصـــر". لم يعرفوا ســـابقا أســـما لي ســـوى الأخرس، رغم أن أمي كانت أم ناصـــر وكم نادتني بناصـــر حينما تدعوني للعودة الى المنزل في العشـــاء أو الغداء، لكنهم تجاهلوه لأن خرســـي همشـــني وجعل اســـمي منسيا، وهكذا استسهلوا اسم الأخرس، وهكذا أيضاً اعتادوا إهانتي التي

لم أعتدها أنا، لهذا لم أجد صعوبة في طرح اسمي الجديد سالم في ذات محيطي الذي كان يناديني بالأخرس ..

.....

اليوم الأول في المدرسة.

لم أكن أعلم أن في المدرسة همّا آخر ينتظرني...

أنا سالم باقي يحيى

لســـت حقيرا كما تعتقدون عندما تمنيت فناء العالم والبقاء على القليل منكم، لأتمكن من الحصـــول على مكانة مرموقة في المجتمع، وإن كان خرابا، لأنكم لو تعلمون ماكنت أعاني لعذرتم حلمي المرعب هذا..

ثالم باقي يحيى

قلت للمعلم الذي طلب من التلاميذ ذكر اسم كل طالب حسب دوره في الصف من المقعد الأول حتى الآخر..

طفق التلاميذ يضـحكون وقد كنت أنا أكبر تلميذ في الصـف. أجلس في المقعد الأخير لطول قامتي التي تكبرهم بثلاث سنوات.

أسـكتهم المعلم" نافع الصـابئي "وأعاد اسـمي نطقا سـليما ووبخ التلاميذ من الضحك علي..

تمنيت أن يكون هذا المعلم، من ضـــمن الناجين بعد الدمار الذي تمنيته، لكنه كان أســـعد مني، إذ لم ير هول ما رأيت وما ســـأرى بعد الكارثة، وماهو المخبأ لي بين طيات هذا الخراب الشامل.

سارت الأمور هكذا حتى صرت في الصف الخامس الابتدائي، وكان المعلم نافع الصابئي أيضا يدرسنا اللغة العربية التي أحببتها لحبي له.

كنت أكتب في درس الإنشـاء والتعبير أفضـل من بقية التلاميذ، فكان المعلم يطلب مني أن ينشر ماكتبته في نشرة الحائط المدرسية، فأزداد زهوا على الطلاب.

حاولت بكل امكانياتي أن أتفوق عليهم جميعا، لأرد على إهاناتهم بالحصول على أعلى درجات بالصف.

شجعني المعلم نافع كثيرا، حتى أنه أهداني مرة عددا من أعداد (مجلتي) للأطفال، وتوجه للطلاب قائلا:

سالم أشطر واحد باللغة العربية في الصف لهذا أعطيته هذه الهدية، وإذا تفوق أحدكم وأخذ نفس درجته سأعطيه أيضا هدية مثل سالم..

رمقني الطلاب بنظرة حسد، رددت عليهم بنظرة احتقار .

أراد المعلم نافع أن يعطيني ثقة بالنفس، وأن يخيف الطلاب كي يكفوا عن التعرض لي، فما أنبله!

لم يدم هذا طويلا ففي إحدى المرات ذهبت لأجلب الطباشير لأن المعلم نافع اختارني مراقبا على الصف لكبر سني ولتفوقي ولم يهتم لنطقي غير السليم. كان الطباشير يوضع بصندوق صغير على طاولة قرب الادارة، بحيث يستطيع من يقف قرب الطاولة أن يرى من في الادارة حيث الباب يكون مفتوحا غالبا.

مددت يدي بالصـندوق لآخذ الطباشـير وإذا بي أرى شـرطيين يتحدثان مع المدير عن مجيئهم لاعتقال المعلم نافع، سمعته يسألهم:

ماهي تهمته ؟

قال أحدهم: إنه خطر، ولم يزد على ذلك حرفاً.

أسـرعت راكضـا للمعلم، أخبرته في أذنه أن الشـرطة جاؤوا لاعتقاله، فكر المعلم وهمّ بقول شيء، لكن الحظ لم يمهله فقبل أن يفتح فمه بكلمة، فتح المدير باب الصف طالباً من المعلم نافع مرافقته الى الادارة..

منذ ذلك الوقت لم ير أحد المعلم نافع، فقد اسـتشـهد تحت التعذيب الوحشي في السجن إذ كان معارضا للسلطة..

كان الطلاب في هرج حين غادر المعلم الصف لكنني أذقتهم العصي فقد سـجلت كل من فتح فمه بكلام سـاخرٍ بنطقي وأعطيت القائمة للمدير قائلا له:

هؤلاء الطلاب يقولون عنك كلاما سـيئا، وبأنك تغار من المعلم نافع الصـابئي، فكانت النتيجة ضـربا مبرحا لكل واحد منهم وركلات بحذاء المدير، وألف لعنة على أهاليهم الذين لم يعرفوا تربيتهم.

كنت أنتشي حين أراهم يتعذبون فأضحك بسرّي ..

شـعور الانتصـار على الدنيا يسـتحوذ علي، شـعور لذيذ، يجعلني أشـعر بأنني أكثر طولا، وأشد قوة، وبأنني قادر على صراع الوحوش.

هكذا أكون منتشـيا، حينما أوقع الأذى بهم، كلّهم في كفة، وأنا في كفة أخرى، وكلّهم لابد وأن يكونوا أدنى مني وتحت أقدامي.

كنت أتوعدهم بسرّي وأقول:

أين يهربون مني أنا لهم بالمرصاد.

ما أن أشعر بالراحة، حتى أجدهم قد ابدعوا في دفعي للحقد عليهم.

ما أن يحاول الزمن أن ينسيني الإساءة وأكون مثلهم حتى أَجِد هوّة أخرى يسقطونني بها لأكرههم أكثر، وأرد عليهم بأقوى مما يتوقعون.

هل أنا اليوم منتصـــر عليهم حقا، وأنا المهزوم من قبل كل ماعلى هذه الأرض ؟ فكل شيء الآن ضدي، الوحدة، الخراب. الخوف، المجهول.

آه، كم تعذبت ليحقق الله لي الأمنيات ..

بعد ذلك رأيتهم يردون علي بتســمية جديدة التصــقت بي طوال عمر شــبابي، حيث فرحت أن التلاميذ نســوا مناداتي بالأخرس بعد نطقي ودخولي المدرسـة لأتشـابه بهم، وفرحت أنني اسـتطعت أن ألفظ السـين كما هي ،ولم يبق غير حرف الراء الثغ به، لكنهم صـاروا يدعوني ب "أبو لسان المكسور" ، ثم تخفف اللقب هذا بعد أيام ليتحور ويُختصر فيصبح "المكسور"..

كانت هذه التسميات تقتلني وتنفث في دمي سموما وأحقادا تستعر.

أنا سالم باقي يحيى، وليس سالم المكسور كما أسمونني.

لســـت عدوانيا كما اعتقد البعض، لكنني حملت همومي وحزني منذ الطفولة.

كم قُهرتُ بطفولتي بسبب خرسي. بكيت في الليالي والنَّاس نيام، وحينما ننام في السـطح صـيفا، كنت أعاتب السـماء، لكنني كنت أرى القمر ندّا لي، فهو يطل بصـــمت، ويغيب بصـــمت، رأيت النَّاس تنبهر بجماله، ويكتب الشعراء والعشاق عنه الكثير. إن القمر أجمل مافي السماء حقا، فهو تحفتها الفضـية وسـيد الليالي المشـرقة. القمر رب النجوى والعشـق. رسـول النور الى عتمة الليل وقد كان رسـولا صامتا مثلي، لايعرف غير نور الحضور ولا حضور أجمل منه.

أنا الصامت لا ندّ لي في العالم سوى القمر..

أقول لكل من يقرأ كتابي، أنني لســـت حقيرا كما تظنون، وكل ما فعلته هو أمنية قوية بانتهاء الحياة على الأرض.

هدفي في ذلك بسـيط جدا فأنا أسـتحق أن يشـار لابداعي بالبنان، لأنني مختلف عنكم، ولأنكم لم تحفروا مثلي الصخر وتعيشوا طفولتكم صراعا مع السـاخرين، لم تتعذبوا بتسـميات ونظرات أوجعتني وخلفت في قلبي كرها للحياة وخجلا من النساء وخوفا من الإقدام في أغلب أمور الحياة.

أنتم لم تعرفوا معنى الصــمت المطبق وعدم القدرة على الجواب بســبب خرســكم، ولم تضــربوا مثلي بالحجارة كالمنبوذين والحيوانات من دون سبب فقط لأنني فقير وأخرس.

الصــمت يشــبه الظلام، تكتنفه أمور كثيرة أغلبها شــرير، فظلمة البحر مخيفة، لا تخبيء أي خير بل فيها التماســيح، الكواســج، الحيتان، القناديل، اخطبوط البحر، ثعابين الماء، وكلها تؤذي، لا تســاعد من يغرق، بل تمتصه الى الأعماق وتسند الشر ثم تستفرد بالغريق الضعيف ميتاً في أعماقٍ سحيقة.

أعترف لكم بأنني جبان، أخاف من الظلام، ومن صــوت الريح أحيانا، أخاف أن أنام في الليل الى الآن وأنا بعمر الســتين، أتحجج بالقراءة حتى الفجر لأغفو، وحينما أصبحت في الثانوية درست بمدرسة مسائية، كما عملت بداية عمري كناظر لمحطة قطار والعمل غالبا في الليل، وحينما خرجت من الوطن لم أكن أعمل إلا لفترة قصيرة، بقيت بلا عمل، جعت كثيرا وأنا أبحث عن الأمان والخبز، عملت أياماً في اســتقبال لفندق ودوامي كان ليلا..

أنا لا أؤمن بما تؤمنون، ديني هو الانتصــار على الجميع، ولا أقوى أكثر من أن أحلم وأعاقب ببساطة من يسخر مني ..

أفكر بنهاية العالم، لأنني ماوجدت الإجابة على ســؤال وجهته لنفســي وهو:

لماذا لم أكن شجاعا؟

هل لأنني ضعيف؟

وهل القوة توجه الشر أم انها بريئة منه؟

ستقولون: الشرّ يكمن غالباً في القوة، وقوة العقل هي الغالبة، ولكن لا تنسوا أن العدالة لاتستمر إلا في ميزان القوة..

كنت أحاول أن أقوي نفسي أيام شبابي وقرأت أن التمر يقوي كثيرا، رحت ألتهم كيسا كبيرا من التمر كل يوم بما يعادل ثلاثة كيلوغرامات، كانت أمي تعجب من هذا، وبما أننا في منطقة نخيل كان التمر زهيدا، إذ كان الناس يتهادون التمر وحصة أهلي الفقراء من تمر الأغنياء والملاكين كبيرة ..

رغم كل ما أكلت من التمر وحاولت أن أرفع الأثقال لأقوي عضلاتي وأنتقم ممن كان يضربني بالحجارة، إلا أنني لم أستطع مواجهة أضعف وأصغر واحد منهم.

عضلاتي مفتولة، جسمي أصبح ضخما ومنكباي عريضان ومن يراني يظن بقدرتي على إيقاعه أرضا، لكن الحقيقة، هو أنني لا أستطيع أن أواجه أحدا سوى بالغدر في غيابه.

أحاول دائما أن أغطي على جبني بالسيطرة على الضعفاء وتبيان جبروتي أمامهم..

صوت الحجارة التي تلقيتها في طفولتي لم تتوقف عن الدوي في أذني وتدفعني للمزيد من الشر.

ترى هل أنا حقا جبان أم أنني ذكي مايكفي لأن استخدم أسلوبا أرقى من أساليبكم في المواجهات الجسدية أو اللسانية.

أنا سالم باقي يحيى

أين تذهبون مني، كلكم كنتم تضحكون علي لولا أنني خلصت من عاهتي، ثم صرتم تغارون مني لأنني انتقلت من الأخرس المنبوذ الى الرجل الكاتب .

صحيح أنني احتلت عليكم وعلى عقولكم الغبية واستطعت أن أسرق الأفكار من الآخرين وأنسبها لنفسي، ذهبت للكتب المترجمة مع أنني لا أتقن لغة أجنبية واحدة، لكن الكتب المترجمة كثيرة، والنَّاس أغلبهم لايقرأون، استقيت من هذه الكتب فكرا غربيا لم يطلع عليه سوى النخبة، حورت الكلمات وأبقيت على الأفكار ونجحت.

سرقتكم وأنتم لاتعلمون.

فمن ياترى هو الذكي فينا ؟

أصبحت كتبي توضع في المكتبات وهناك من يدعوني ناقدا، أو مفكرا، وكاتبا، رغم انني أعرف أن الناس لايقرأون كتبي.

أنا لن أكتب هذا بمذكراتي اعترافا كالمجرمين، أبداً، إنما هو تفوقي عليكم ومواجهتكم في غبائكم الذي به تفخرون وتعتقدون أنكم الأفضل..

سأقص عليكم بعض أفعالي الذكية والتي تسمونها ربما إجرامية.

كنت صغيرا بعمر ستة أعوام حينما دخل بيتنا طفل بعمر ثلاث سنوات، جاء كضيف مع أهله لبيت جيراننا، وهم أقرباؤه، أما أهله فيسكنون محافظة أخرى، كان هذا الطفل جميلا ومحبوبا لدى الجميع، يرتدي ملابس أنيقة، غالية الثمن، يحفظ نشيدا حلوا عن الوطن، وأعشاش

الطيور على ما أتذكر، وكيف تعود الطيور في الغروب لأعشاشها، ينشده ويحرك رأسه كالمطربين، كل المستمعين له من الأهل والجيران، يصفقون له ويقبلونه ويغدقون عليه بالحلوى، كنت أنا الأخرس الذي أكبره بسنوات، لا أستطيع قول كلمة واحدة، وما كان لي سوى الحسد من الظواهر التي أعجز عنها.

غافلت جيراننا الذي بعمري وشغلته بلعبة واستدرجت الطفل الى درج بيتنا.

انتم لا تفهمون معنى العذاب حينما يسمع الانسان كل شيء ويفهمه لكنه عاجز عن الرد عليه أو تقليده والتعبير عن الانسجام أو الرفض، لقد كمّم الظلم فمي بالخرس، شعرت برغبة قتل الطفل لأنه قادر على الانشاد وأنا صامت، فما كان مني إلا أن ركضت الى الشارع الذي تقوم البلدية بتعبيده لأول مرة في مدينتنا، حيث رأينا الزفت الأسود الذي ماكنا قد رأيناه، ولا شممنا رائحته، أخذت بين أصابعي زفتا مازال حارا ومرنا كالطين الاصطناعي، صنعت منه كرة صغيرة ولففتها بأوراق شوكولا صغيرة مرمية على الأرض، قدمتها له ليأكلها، فتحها ظانا أنها شوكولا وأكلها الصغير الذي لا يميّز لصغر سنه.

كنت أنا بعمر ست سنوات لكنني أذكى من أقراني، وقد أكون الأخبث لكنني مصر على مفردة الأذكى، نعم كنت أذكى من الجميع وما زلت..

فرح الصغير بما قدمت له، التهمها وقد يكون ابتلعها بلعا، فأطعمته الواحدة تلو الأخرى..

في اليوم الثاني ســمعت أمي تتحدث الى جارتنا قائلة: البارحة كان يلعب مع ابني وبصحة جيدة ماالذي حصل ؟

لم أقل لأمي شيئا، وهل بامكاني قول شيء وأنا أخرس ؟

نام الطفل ليومين في المســتشــفى ولا أدري بعد ذلك هل شــفي أم مات لأنهم كانوا ضــيوفا عند جيراننا آتين لهم من مدينة اخرى وقد رحلوا آخذين ابنهم المريض معهم ..

ترى هل مات ؟

لا يهم طالما قد استفزني بالغناء فهناك ظلم علي.

لاتقولوا أنني قاس، لو كنتم مكاني لربما قتلتم الناس جميعا.

الآن كل شيء قد انتهى.

الآن تحققت أمنيتي بانتهاء الحياة على الأرض، ولكن كيف سأعيش ؟

هل مازال هناك بشر غيري ؟ وأين أجد ابنتي ؟

...

أنا سالم باقي يحيى

سأخبركم بكل مافعلت، سأدون كل ماض وحاضر، من شر وخير.

بعد الكارثة الكونية، أو بعد عودة الوعي الذي غاب عني فيها، سرتُ بين الركام والحفر البركانية المرعبة، باحثا عن ابنتي وعن أحياء، مستوحشا الأرض المدمرة، لا ماء ولا طعام ولكن الأمل بأنني سأنجح في إيجاد ابنتي كان يقويني.

سمعت صوتا من بعيد وحين اقتربت وجدت رضيعا يبكي بقربه قنينة حليب، كم كان منظره موجعا، كانت بشرته قد اصطبغت بسخام الخراب ولَم يعد له وجه الطفل، ليته قد مات وترك حليبه لي قبل وصولي اليه. كنت أتضور جوعا وعطشا، لكن الطفل حي يرزق ويريد شرب حليبه.

تفجرت أنانيتي ولم أعط الحليب للطفل، أعترف إنني شربته وتركته يبكي، حتما إنه الآن يلفظ أنفاسه من الجوع، وحده في هذا الخراب كما أنا الآن..

لو كانت أمه حية لما استطعت قتله بسهولة وقسوة، ولدافعت أمه عنه بكل قواها..

لو كانت أمه حيّة، لما مات ولما كان ضعيفا في العراء، ولما مات طريّا، لم يذق طعم الحياة بعد.

لست حقيرا كما تظنون أو أن الرحمة لامكان لها في قلبي، لكنني تصرفت بحكمة فمن سـيرعاه لو عاش، ومن أين سـآتي له بالحليب وكل شـيء مجلل بالسواد والدخان والمواد المنصهرة والغريبة التي لا أعرف من أين تأتي ؟.

الموت أهون الحلول وأحسنها في ظروف لا بشرية ..

الحجارة ما زالت حارة. هناك بعض نار تومض من بين الحفر والانهيارات التي خلفتها الكارثة.

كنت حينما أريد النوم أحتمي بزاوية أو بقايا غرفة سقطت وبقيت محتفظة ببعض هيكلها، التجئ اليها، سـحبت حجارة كبيرة اعتبرتها باباً تحميني من مجهول، فقد يكون هناك وحوش أو بشـر يريدون أكلي بعد خراب الأرض وموت الزرع والبشر وكل شيء..

كان علي مع البحث عن ابنتي، أن أبحث عن بشـر آخرين، وإن لم أجد البشر فمن يقرأ كتبي ومن سيشهرني، ومن سيساعدني إن احتجت ؟.

آه من دوي الصمت والوحشة

هل ابنتي حية ياترى وأين تكون إن كانت حيّة ترزق ؟

نمت خاوي البطن إلا من حليب الرضـيع الذي أبقاني على قيد الحياة، حتما إن أمه ماتت في الكارثة..

تذكرت أمي التي عملت المستحيل من أجلي لأنجح وأحصل على شهادة. كانت تبكي كثيرا من حبها لي، وكم مرضـت وتعذبت كثيرا من أجلي، ولكن لا أدري كيف نسـيت حتى تلك الحادثة الرهيبة التي هزت كيان

أمي هزّاً، مما جعلها حينما تتذكرها أحيانا تنهار بالبكاء. كيف نسيت ذلك اليوم الذي ارتفعت به درجة حرارتي فوق الأربعين، كنت بعمر يقارب الرابعة، حملتني أمي بين ذراعيها وهرعت بي الى الشارع، كنا نستأجر بيتا منذ اسبوع ولم تعرف أمي المنطقة أو المدينة بعد، وأين طبيب الأطفال، تحملني أمي وتصرخ مستنجدة بالناس في الشارع:

ياعالم أريد طبيبا..

وإذا بإمرأة تراها وهي في شرفة منزلها بالطابق الأول. أشارت على أمي أن تسير بضعة أمتار لتجد عيادة طبيب للأطفال.

دخلت أمي العيادة باكية. كان جسدي ينتفض، و كما روت لي أمي الحالة وهي تتوجع حتى حفظتها عن ظهر قلب. كانت عيناي قد ابيضّتا حيث النزع الأخير. لم تنتظر أمي دورها في غرفة الانتظار مع الناس بل ضربت باب الطبيب صارخة:

دكتور أرجوك ابني سيموت..

المراجعون ينتظرون أدوارهم، وكانوا قد حضروا قبل أمي، لكن الطبيب كان نبيلا، فأسرع وأنهى حديثه مع المراجعين وأدخلنا غرفته، زرقني إبرة سريعة ثم حملني الى الحمام، وضعني تحت الحنفية وصار يعرضني للمروحة لتنخفض درجة حرارتي.

كانت أمي ملتاعة، تبكي، وأنا مثل الجثة بلا وعي ولا حراك..

فحصـــني، زرقني إبرة، ثم فتح كتاباً كبيرا يقرأ بـه مما زاد في قلق أمي وخوفها علي أكثر، إذ رأته وقد ارتبك واحمرّ وجهه. انقطع قلب أمّي خوفا من أن يكون الطبيب الشاب بلا تجربة وغير قادر على انقاذي مما جعلها كالمجنونة ..

لحق بنا أبي لا أدري كيف ربما ذات المرأة في الشـرفة أرشـدته الى عيادة الطبيب.

أنا لم أتذكر كل هذا، لكن لكثرة ما اســتعادته أمي وكررته وهي تبكي، حفظته عن ظهر قلب..

الطبيب يطلب من أمي مغادرة الغرفة ليبقى أبي وحده معي.

خرجت أمي بلا صــواب الى غرفة الانتظار، أطبقت الدنيا عليها، وجهها لاقطرة دم فيه، لم تحتمل بقاءها بعيدا عني، عادت بعد دقيقتين الى غرفة الطبيب دافعة الباب صارخة: ابني دكتور انقذه أرجوك..

يكرر الطبيب وضــعي تحت الدوش ويزرقني بأكثر من ثلاث أبر حتى عادت لي الروح وفتحت عيني، عندها عادت الروح لأمي، طلب منها الطبيب أن تأتي بمنشفة، طارت أمي راكضة بعد رؤيتها سلامتي، وبسرعة لاتصدق كانت المنشفة تلف جسدي الصغير، تحملني أمي الى المنزل، طلب منها الطبيب أن تسهر علي ثلاث ليال متتاليات لتقيس حرارتي كل ســاعة خوفا من أن تهبط الى مادون ٣٦، كما رتب لنا موعدا بعد ثلاثة أيام، وكتب وصفة دواء تتابعه أمي لشفائي .

ألصقت أمي أجفانها العلوية بشريط لاصق كي لاتنم ثلاثة أيام بلياليها، تشرب الشاي والقهوة لتبقى منتبهة لي، تجلس بجانبي نازفة روحها علي حناناً، تقيس درجة حرارتي، تطعمني، تداريني، تقبلني، تحتضن جسدي الصغير مرة، وأخرى تحدق بوجهي بعشق لذاك الطفل الذي تولهت به، كانت طوال الوقت تمسح على رأسي سافحةً دموعها بكرم..

قال أبي لأمي عندما تحسنت حالتي:

هل تعرفين حينما أخرجك الطبيب من غرفة الفحص ماذا قال لي ؟

ماذا ؟

قال لي إن مرت خمس دقائق ولم تنزل حرارة الطفل سيموت..

حينما قال أبي هذا وقعت أمي على الأرض باكية تضمني، تقبلني بلهفة، وتلصق صدري على صدرها.

أعرف أنكم ستقولون كم أنني حقير، لأن أمي تحملت الكثير، أضاعت عمرها وشبابها من أجلي إذ بقيت مع أبي الميت روحا وجسدا، والذي يكبرها عمرا وتتفوق عليه هي ذكاء، وجمالا، وشباباً.

لكن هل كنت وفيّا لأمومتها ؟

هل حقا أن الحب بين الأم وابنها هو حب من طرف واحد؟ فمهما بلغ حب الابن لأمه، لن يصل الى ذرة من حب أمه له..

لم يبق لي سوى الذكرى في رأسي، الندم على مافات.

اليأس يقلب موازين العقل ويعيد الانســـان الى الوراء، فحين لاترى أفقا لمســـتقبل آتٍ، لم يتبق أمامك ســـوى الماضـــي لتعيش به ومعه حتى النفس الأخير..

.....

أنا سالم باقي يحيى..

أعترف أنني كنت نذلا وحقيرا فقد قتلت أمي قهراً.

سأخبركم هنا كل شيء، سأعترف بكل جرائمي وحماقاتي. حينما تخرجت من الجامعة، وصـــرت كاتبا، صـــار عندي الراتب الجيد والمال وأخذت شـــهادة عليا بعد الجامعة، عرفتني أمي بشـــابة تعرفت عليها في إحدى المدن من خلال معارفها. مثلت علينا دور الفتاة الحضـــارية البريئة.. تزوجتها.

الزوجات غالبا مايشـوهن رؤوسـنا. المرأة التي هي أرحم مخلوق والتي هي واهبة الحياة، قد تكون أحيانا أخبث وأنذل مخلوق على الأرض عندما يتعلق الأمر بالغيرة من امرأة أخرى خاصـــة لو كانت أم زوجها أو أحد أخواته. المرأة تريد قلب الزوج لها وحدها، تتمنى من كل قلبها أن يكره أهله، مشـــكلة أزلية، فســـرها بعض علماء النفس بطرق عديدة، منها تفسـيرات غير مقنعة كتفسـير من قال منهم أن الزوج غالبا مايشـبه أمه، وأن الزوجة غالبا ماترى شـــيخوخة زوجها بشـــكل أمه وهي تكره بعقلها اللاواعي أن ترى زوجها كبيرا بالسن لهذا هي تكره أم زوجها حتى من دون أي سـبب، أو هي تختلق الأعذار والأسـباب بذلك. قال بعضـهم انه صـراع الأجيال، وقال آخرون بأن الزوجة لاتريد أن يوازيها أي إنســـان بحب زوجها، ولكننا نرى أن بعضـهن لاتحب زوجها ولاتحب أمه أيضـاً. قالوا أن الأم تجد نفســـها وقد أختطف قلب ابنها منها بعد تعودها عليه فتبقى غير مقتنعة بكل نساء الأرض كمواز لابنها وقرين له.

إذاً لانعرف أين السـبب في ذلك، وليس كل النسـاء ينطبق عليهن هذا الحكم، لكن الغيرة بين النسـاء كانت وتبقى دافعا للعديد من الجرائم والمعضلات الاجتماعية.

المرأة قد تكون قاتلة عندما تشـتعل الغيرة بداخلها من أية إمرأة في محيطها أذا تفوقت عليها بشـيء من الجمال، أو الرشـاقة، أو الذكاء، أوالمكانة الاجتماعية، أو أي شيء حتى الطيبة والهدوء، أو فقط بسبب حب الزوج لأمه وأهله أو بالمقابل لزوجته، فهو كفاية ليكون مدعاة لغيرتها القاتلة . .

أما أغلبنا نحن الرجال، فعقولنا بين أفخاذنا، تسـتطيع أبسـط امرأة أو مراهقة أن تلعب بعقولنا وتغير أدمغتنا، وبهذا العقل خربنا الأرض وسمحنا للشر باستغلالنا، وللأسف رغم كل ماحصلنا عليه من التطور العلمي والحضاري، بقينا هشّين تحت قدرة المرأة على غسيل أدمغتنا والانتصار على عقولنا بخبث.

هكذا كنت حقيرا، مغسول الدماغ، حين صدقت كلام زوجتي كله، ولَم أشـك به، وأقنعت نفسـي أنها على صـواب فلم أعط الضـحية أمي أي مجال للدفاع عن النفس.

اعترف بأني أحقر من حشـرة، لأنني لم أعتبر أمي أمانة عندي في كبرها، وكان من واجبي الوفاء لها حتى الموت.

ها أنا وحيد في كل هذه البقاع الفسيحة الخربة التي تمتد أمام عيني

لم تفترض أمي الشـــر بـالأخرين أبـداً، وثقتهـا بـالنـاس أوقعهـا في هـذا المطب..

كـانـت الفتـاة التي عرفتني عليهـا أمي قـد مثلـت دور القطـة الأليفـة، لاتعترض على شـيء بداية ولا تريد شـيئا، وكانت أمي ذات شـفقة وحنان على الفقراء مما دفعتني للارتباط بهذه الشابة.

أحببتها وأحسنت لها بالتعامل واحترمتها كثيرا.

مســكينة أمي تميل للدفاع عن المرأة في أفكارها بقدر ماتعذبت على يد أبي وعـاشـــت بحرمـان وأهمـال من أبي. تعـاملت أمي مع أهـل زوجتي وأكرمتهم بما لايفعله أحد في زماننا..

وارتبطنا وكان لنا منزلنا المستقل وحدنا. كانت زوجتي في البداية تشكر أمي لأنها عرفتنا ببعض، كانت تعاملها جيدا حينما تزورنا مرة بالاسـبوع، لكنها بعد أن تأكدت من استحواذها على قلبي، وصار عندنا طفلة تعلقت بهـا أمي كثيرا، أخـذت زوجتي تختلف مع أمي كثيرا، تعـانـدهـا في كـل شيء، صارت لاتحترمها ولا تستقبلها جيدا، وتفتعل الخلاف، كانت أمي تتحملها بداية لكن صبرها نفذ.

كنت انا أقف مع زوجتي دائما وليس مع أمي حتى على الخطأ.

الآن وبعد خراب كل شيء.

الآن، وبعد هذا الخراب أزيلت الغشـاوة عن عيني، صـرت أرى الحقائق كما هي.

عجباً؟

الآن حين أفكر بالأمر أجد أن زوجتي كانت تعشــق ذاتها بطريقة غريبة، كانت مريضة بالنرجسية العالية، أصرّت أن أسمي ابنتي على اسمها، ولو فكرت قليلا بـأن حتى أعتى الطغـاة الـذين مروا على الأرض لم يفكروا بذلك، حيث أرادت أن تتباهى بأنني أحبها فوق المعقول، وأكثر مايحب الرجال زوجاتهم، هكذا قال لها مرضــها النفســي وشــعورها بأهميتها رغم خوائها، وهذا هو أحد أســاليب النرجســيين لأنهم يعتقدون بأفضــليتهم على البشـر، هكذا سيطرت علي شيئا فشيئا، وهكذا خططت لجعلي لها وحدها..

خربّت علاقتي مع أصــدقائي أولاً، ثم جميع أقربائي ومعارفي، وحتى الجيران أفسدت العلاقة معهم، ثم ابتدأت بعائلتي، أخوتي وأمي.

أصبحت زوجتي هي الغنية، وأمي الفقيرة بعد أن أعطتنا كل ماعندها.

صارت زوجتي تنظر لأمي بتعالٍ وتجرحها، وأنا الحقير المغسول الدماغ، لا أفكر بوجع أمي ولا أتدخل.

لَم تبق لي زوجتي أية علاقات، ومن السـقوط أن تصـل الوقاحة بإنسـان أن يحرم أم من أبنها وأحفادها. أنه ســقوط اخلاقي كبير ما كنت أراه إلا الآن، وبعد الخراب. بعد إزاحة الغشاوة عن عقلي وفوات الأوان.

لم تبق لي زوجتي ســوى العلاقة بأهلها، وأقربائها، ومعارفها الذين فرضتهم علي. عزلتني عن عالمي القديم الذي كان يحبني وأحبه، ومنعتني من الجلوس لأمي .

بقيت زوجتي تمارس علي مرضها ونرجسيتها وتفصلني شيئا فشيئا عن كل من يحبني وأحبه عداها. أوغلت في سحقي والسيطرة علي، وأنا المغفل أصدق كل ماتقول وتدعي وأعتبر هذا حباً.

قرأت بعد ذاك بأن الكثير من النرجسيين هم مرضى يعيشون بيننا ويمكن أن يتطور مرضهم، ويفعلوا أي شيء حتى القتل وبكل برود، ولكننا لم نكتشفهم وقد لانكتشفهم الى الأبد، وقد نكتشفهم بعد فوات الأوان.

كان كره زوجتي لأمي مبطنا وهي تحاول تغطية غيرتها من أمي اللبقة، الجميلة، المحبوبة، الممشوقة، الرشيقة، التلقائية، القادرة على اختطاف محبة الناس بسرعة، لكنها تظهرها في بعض الكلمات الجارحة التي تبتلعها أمي حبا بي وبابنتي، بعد أن استقرت وتأكدت من مكانتها.

صارت تسمعني كلمات تنتقد كل شيء بأمي بالضحك والسخرية مرة، وبالجد مرة أخرى، حتى أوغلت قلبي عليها وأسقطتها في نظري، وهشّمت تمثالها المقدس في ذهني ..

تغيرت القطة وأصبحت زوجة متسلطة جدا والى حد لا يطاق. كنت أخافها إذ أخاف فقد ابنتي، وخراب بيتي، كما كانت تومئ لي في كل كلامها عن أمي..

تعلقت ابنتي بأمي حينما تجيء لزيارتنا، مما زاد غيرة زوجتي منها، كانت ابنتي تبقى في حضن أمي وتلتصق بها أينما تذهب في البيت حين تكون معنا، وكم كان هذا يسعد أمي حتى انها تلعب معها وتسعد بألعابها،

وتجلب لها الهدايا بمحبة، كأنها بعمرها، وحين تغادر كانت ابنتي تبكي عليها..

وتردد زوجتي أحيانا بصوت غير مسموع مستنكرة حب الطفلة لجدتها:

الكلبة تحب جدّتها أكثر مني...

.....

أنا سالم باقي يحيى

طردت أمي من بيتي، كانت هي الضحية وهي المعتدى عليها، لكن كلام زوجتي الدائم بذم والدتي أمامي جعلني أراها أمرأة أخرى، بل صرت أكره أمي، دونما سبب كبير يجعلني أفعل ذلك سوى اختلافها مع زوجتي.

بعد مشادة كلامية لم تحترم زوجتي بها عمر أمي ولا مكانتها، فقدت أمي أعصابها وقالت لزوجتي كلمة قاسية بلحظة غضب بعد أن فاض صبرها..

طردتُ أمي من بيتي وقاطعتها لسنين طويلة حتى ماتت، تركتها وحيدة موجوعة بفقدي وفقد ابنتي التي تعلقت بها.

طردت أميّ التي لم تطلب مني فلسا واحدا، لَم أساعدها في شيء أبدا منذ تزوجت، لَم أوصلها حتى لمكان ما في سيارتي ، ولَم أفعل معها أي واجب كما يفعل الابن.

آه كم كنت حقيراً، فكم طلبت أمي السماح منا وحاولت مصالحتنا برغم قسوة الموقف عليها، لكننا لم نفعل وبكل جحود تركناها تبكي وتشكو شوقها لنا وحرمانها منا، كأننا لم نسمع كلمة المسامح كريم أبداً.

أميّ التي لَم تتدخل بحياتي مطلقا، تسكن بيتها وحدها، لَم تفرض نفسها علينا، فهي رغم شوقها لنا ولهفتها على ابنتي خاصة، كانت لاتريد إزعاجنا ولا أن تكون ثقيلة علينا، فلم تزورنا إلا حينما نسمح نحن بذلك، أو نحتاجها لتكون مع الطفلة حينما نريد الخروج أو تكون زوجتي مريضة، كانت فرحة بنا كأم وصديق محب يقف مع صديقه وقت الحاجة.

لســـت حقيرا كما تظنون لكنني حوصـــرت بالاختيار بين أمي وزوجتي، وأيقنت وبتأثير من زوجتي بأنني إن فقدت الآن أمي لاينقصـني أي شـئ، أما إن زعلت علي زوجتي ســيخرب بيتي وأفقد الزوجة وســأفقد أبنتي وستخرب حياتي، فوقفت مع زوجتي رغم كل شيء، والظلم غالبا ماتظهر نتائجه أخيراً.

حينما تنقل الوضيع الى مكان رفيع يرتبك ولا يصدق هذه النقلة الكبيرة، يصاب بالشعور بالعظمة والتكبر، ربما أسموها صدمة الحضارة، وحقا قول الإمام علي:

إذا وضعت أحدا فوق قدره، فتوقع منه أن يضعك دون قدرك...

وهذا مافعلناه أنا وأمي حين منحنا زوجتي أكبر من قدرها، وماكان منها إلا إن تـآمرت على أمي وقطعتهـا من حيـاتنـا، وحرمتهـا من ابنتي التي تعلقت بها ..

كانت أمي تتصرف بفروسية أصيلة لا تفهمها زوجتي أبداً، وقد تراها ضعفا وحاجة لها.

للأسف عرفت بعد فوات الأوان بأن الخونة والوضيعين يؤثرون بالأحداث غالباً أكثر مما يؤثر بها الأبطال، فتنتصـر الرذيلة وتهزم الفضـيلة، فنرى الأخلاق تتردى جيلا بعد آخر..

كم كنت غبياً وعاقاً، وكم كانت زوجتي جاحدة وضيعة، فقد نسيت بأنها لولا أمي لم تر كل العز الذي تعيشه الآن، ولَم تكن لترى المال، والذهب، ودعة الحياة، التي ماحلمت بربعها.

آه، كم كنت جبانا، إذ كان بإمكاني الإتصال بأمي أو رؤيتها دون علم زوجتي، ولكنني لم أفعل وتركتها تموت حزناً علي وشوقاً..

طردت أمي من بيتي الذي اخترته معها..

كان أول منزل أملكه بحياتي. كانت أمي فرحة به أكثر مني، أمي التي ماتت ولم تملك شبرا بالأرض، لهذا فرحت لأنني حققت مالم تحققه هي من استقرار، ولَم أمتعها بما حصلت عليه من مال ورفاه، بل أصبح الرفاه، والدلال، والمال لامرأة لم تتعب في شيء، جاءت صدفة، وحصلت على كل شيء بخبث.

كم ساعدتني أمي في إكمال البيت قبل زواجي. كم أتعبت نفسها من أجلي، لقد حملت معي حتى أثقال وحجارة ماتبقى من تشطيب البيت، كانت تتعب بفرح، تغني وتبتسم بسعادة ومحبة .

كنت أعطيتها نسخة من مفتاح المنزل قبل زواجي، وحين عرفت زوجتي طالبتني باسترجاعه من أمي التي نحتفظ بمفتاح بيتها حتى الآن..

طردت أمي التي ليس لها أحد في العالم سواي، أمي التي عانت كثيرا من أجل أن أكبر وأكون.

ها أنا الآن مطرود من كل شيء بالدنيا..

آه يا أمي، لقد رفعت الغشاوة عن عيني وذاكرتي، فهما اليوم حديد..

الآن صرت حكيما وأتمنى أن يتعلم الرجال حقيقة مفادها:

إن المرأة التي تجعلك تكره أمك تهدّم بناء شخصيتك كلّها، وتهدّ كيانك السوي لتصبح مسخاً.

أين هي زوجتي المتسلطة الآن ياترى؟ هل ذهبت مع الذاهبين في هذا الخراب؟ ليتها كذلك فهي قد ماتت في روحي والى الأبد.

أتذكر الآن كل شيء، وكل مافعلته بأمي، وكل ماقالته برأسي لأكون عاقاً وقاسيا، ولكن لم يعد ينفع كل هذا بعد فوات الأوان. فوات الأوان قتلٌ بطئ، يعيد ويكرر علي الذكرى كغصات الموت.

إنني لا أقوى الآن على السير.

حتى الصخرة التي استندت عليها، تدحرجت من تحتي، فسقطت على مقعدي، حاولت النهوض، ولكن قدميَّ لاتقويان، وكلما أحاول تحريكهما يغوصان بالأرض ويحفرانها، أخاف أن تغوص بي هذه الأرض الرخوة التي أجلس عليها.

يبدو إنني أموت فعلاً.

عرفت الآن لماذا يفتح الأموات عيونهم بكل سعتها وبتعجب مروع قبل موتهم، رأيت الكثير منهم، كلهم يموتون مفتوحي العيون، يرون مامر بهم بوضوح أكثر ويعرفون الحقائق بعد فوات الأوان..

أتذكر الآن جيدا، وبوضوح رغم انهيار جسدي، أتذكر أكثر من أي وقت مضى، كيف بقيت أمي تبكي وتتوسل الأصدقاء لاصلاح ما بيننا، ولَم تكن تريد مني شيئًا سوى رؤيتي ورؤية ابنتي، ولكن زوجتي أصرت على أن أنسى أمي وعلي أعتبارها ميتة..

نسيتها رغم أنها ليست عاجزة ولا كبيرة بالسن، لكنها وحيدة بهذا العالم الحقير وليس لها سواي.

لقد نسيت اميّ، غيرت رقم هاتفي وكل ما يمكن أن يوصلها بي، بعت بيتي الذي تعرفه وتحبه، واشتريت آخر بمدينة أخرى، أضعت نفسي كي لاتعرف أمي طريقي، كل هذا بتحريض وتدبير من زوجتي.

نسيت كل ماقرأت من اقوال العظماء عن حبهم لإمهاتهم، نسيت عظمة الأم وقدسيتها، وكان علي تذكر على الأقل الأقوال المشهورة جدا في الأم، لعلّي أحن وأرجع لطبيعتي قبل الزواج، كان علي تذكر ماقاله البيركامو مثلا :

"أنا أؤمن بالعدل، لكني أدافع عن أمّي قبل العدل"..

آهٍ من غبائي.

لماذا لم أدافع عن أمي مثل بقية البشر الأسوياء، لماذا جعلتها تموت بقهرها لمجرد كلمات، وغيرة نساء، وقال وقيل ؟

طردت أمي من بيتي بصفاقة..

كان علي أن أتذكر حينما كنت صغيرا، كيف كان أبي يعامل أمي بقسوة، يضربها أحيانا، لم أره ساعدها بالبيت، ولم أسمع منه أنه ناداها حبيبتي يوما. كنا نعيش بحالة من الفقر ولكن أمي كانت دائما تفضلني على نفسها. كانت تخيط الملابس وتحوك لي وترقع ثيابي بطريقة لاتبدو معها الملابس إلا جميلة، كانت أمي فنانة في ذلك وكانت متنوعة المواهب، ولَم تكن تضربني يوما أبدا، وحينما يقسو عليّ أبي، كانت تقف بجانبي وتمنع عني الأذى..

كيف نسيت كل هذا ولم أمنع عنها الأذى، إنما قتلتها ببرود ؟

كيف نسيت إن أمي كانت تشتري لي قبل أن تشتري لنفسها!

لا أدري كيف عميت عن رؤية الحقائق!

شيء يشبه السحر، السحر هذا الذي يجئ للرجل الغافل مثلي بعد الزواج فيتغير على أمه ويكرهها أحيانا، السحر السام الذي وضع غشاوة على عيني وعقلي لأنسى أوجاع أمي وتربيتها لي، مع أنني الآن أتذكر تماما ماكنت أقوله لأمي قبل زواجي :

ماما، حينما أتزوج ويصبح لدي أطفال، أتمنى أن تقصّي عليهم ذات القصص التي قصصتها علي وعلمتني الكثير، وأن ترددي عليهم ذات الأناشيد التي حفظتها منك..

كيف نسيت كل هذا ؟

كيف صرت أسخر منها أمام زوجتي وبأنها لم تكن تهتم بي كما تهتم زوجتي بأطفالي، ناسيا الفرق في ظروفهما، وناسيا الفرق بين إمكانياتي

المادية وامكانيات أبي الفقير، والحرمان الذي رأته أمّي، وناســيا تعاملي مع زوجتي واحترامي لها وكله من أفضـــال أمّي التي علمتني كيف أعامل المرأة برقي، أمّي التي لم يكن أبي يعاملها بما تستحق؟

أما زوجتي فجاءت لتجد كل شـــيء جاهزا ومتوفرا بلا عناء، زوجتي التي منحتها الاحترام، والدلال، والمحبة وكل مالا تحلم به هي وأهلها، بمقابل ذلك لَم أمنح أمّي حتى كلمة طيبة أو أي احترام أو تسامح..

قالوا إن أمي كانت تحترق بكاء كل يوم، تغرق بدموعها أمام الناس، تتوسل المعارف لتعرف من خلالهم شيئا عني وعن ابنتي، وكلما سمعت أحدا ينادي ماما أو رأت طفلا بعمر ابنتي كانت تبكي، تنهار، تتألم، وتمرض دون أن أسأل عنها...

ماتت أمي قهرا بعد قطيعتنا لها ولم أعرف إلا بعد أيام من خلال المعارف..

ماتت أمي حزنا وشوقا، دون أن تراني.

أعرف أنني كنت نذلا معها لأنني استمعت لأكاذيب النساء والقيل والقال ولم آبه بصـــحتها أو حنانها. كان يجب عليّ أن أفهم أن الأم لا يجوز مقاطعتها، ولا يجوز قهرها وهي في عمر الضـــعف. كان يجب علي حتى وإن أخطأت اعتبرها متعبة ومريضة.

آه يا لخيبتك بي يا أمي، وَيَا لقسوة مافعلت بك.

كان يجب علي الأهتمام بها حتى وإن كانت مجنونة، ولا أرميها هكذا وأجهل مابها وأحرمها مني ومن أبني. كان يجب علي عدم تركها مهما كانت المشكلة، فهي من أوجدني بالحياة وعلي تعظيمها بكل أحوالها. كان علي فعل الكثير الذي لا مجال فعله بعد الفجيعة.

الأم لا تُترك فهي أصل الانسان ومن ذا يقطع أصله غير النذل! ..

آه لقد فات الأوان، وأنا أبحث عن ابنتي الضـــائعة، أنكوي ألف مرة كما أكتوت أمي.

لقد دارت علي الدوائر يا أمي، وها أنا أتلقى مافعلته بك وأكثر..

كم كنت قاســيا، لم أذهب يوما لأعاتبها أو أجالســها ســاعة واحدة كما يجالس الابن أمه. كانت زوجتي تعرقل جلوســي وحيدا مع أمي ولا تتركني معها ابدا. كم كانت أمي تود لو أنني عاتبتها مثلا لتوضــح لي الحقيقة، لكنني لم أفعل، وهذا ماجعلها تموت حزنا وشــعورا بالظلم والهزيمة القاتلة بالحياة. منذ تزوجتُ صرتُ لا افكر إلا بزوجتي وابنتي، رغم أنها لم تكن موازيا لهما، ولَم تطلب مني شيئا سوى ان ترانا وتسعد بِنَا..

هكذا نحن البشر حينما تسرقنا متعة الجسد من كل عزيز نصبح أنذالا.

كم كنت غبيّا، فقد حرمتها حتى سماع وجهة نظرها.

المنطق يفترض الجلوس مع الطرف الآخر من الأطراف المتخاصــمة، أما أنـا فلم أســتمع إلا لزوجتي، ولَم أســمح لأمي بـدقـائق تعبر بهـا عن مظلوميتها، لم أتصـل بها حتى تلفونيا لتقول كلمة لي، لم أمنحها فرصـة

معرفة حقيقة ما، أو دفاعا عن النفس، أو رأيا ً، وكم كانت أمي طيبة بنواياها.

طوال عمري لم أختلف مع أمي إلا بعـد زواجي ولأول مرة بحيـاتي، والغريب أنني صرت أعاملها كعدو لي وليست أمّي.

كيف حصل ذلك ؟ ولماذا؟

هل لأن زوجتي تغار منها وتكرهها كان علي أن أكرهها!

من أين يأتيني سلام الروح بعد، لقد قتلت أمي ؟

أي هرمون مجنون هذا حينما يضـع عقل الانسـان بين فخذيه ويعميه عن الحقائق!

أي جنون يودي بالإنسان حين يطارده هذا الهرمون ويجعله آلة بيد الآخر فيعتاده.

قرأت بحثا عن الهرمون الذي يجعـل الرجـل يـدمن زوجتـه ويعتـاد على رائحتها وإن كانت رائحة بشعة. لاغرابة فهذا الهرمون الذي يطوره شياطين الأرض بالمحفزات يفعل الأعاجيب من الجرائم.

كنت قبل زواجي أستهجن حكاية شاعت عن انسان عاق، يقول لأمه بعد زواجه وبسخرية :

كم علبة حليب شـــربت بطفولتي منك ؟ إحســـبيها وســـأدفع لك ثمنها حليب نيدو ونكون خالصين حيث أدفع لك ثمن الأمومة.

وكانت أمه تبكي وتقول له :

انك تقول هذا لأنك لاتشـــعر بما في روحي، فأنا لم أطلع من روحك وجسدك، أما أنت فقد طلعتَ مني، ثم تقول له:

أنت يا ولدي قطعة قُطعت من قلبي، لهذا بعدك عني يوجعني وقد يقتلني ..

كيف غيرني هذا الهرمون وهذا الاعتياد ؟

لقد قتلت أمي بإحساسها بالظلم من فلذة كبدها.

ســـمعت بعد رحيلها من معارفها الذين رفضـــتُ اللقاء بهم قبل رحيلها، ورفضـــتُ تدخلهم ودفاعهم عن أمي، قالوا أنها كانت تحترق نارا من الشعور بالجحود الذي ذاقته على يدينا أنا وزوجتي وكانت تموت كل يوم ألف ميتة.

كانت أمي تندهش ولا تصدق كيف كنت صامتا راضيا أن توجه لها زوجتي كلمات مهينة وقاتلة، وهي التي لم يوجه لها أحد إهانة من قبل حتى أبي الذي كان عنيفا معها لم يقل لها كلاما جارحا كما قالته زوجتي لها. كلمات حادة، بقيت تحفر في روحها حتى موتها.

يا الله إنها أمي وأنا قاتلها، فكيف أكفّر عن فعلتي وقد ذهبت بطريق لاعودة منه ؟

ماتت أمي بحسرتي مقهورة.....

.....

أنا سالم باقي يحيى

قاتل أمه ببرود أعصاب.

القتل أنواع وأنا قتلت أمي أبشـــع قتل، كان قتلا بطيئا، موجعا، دام عذابه سنوات..

قد أكون شخصا واحداً، أو أنا عدة أشخاص، لكنني واحد في كل الأزمان والأمكنة، أكرر نفســي وأســتنســخها، أعيد الكرة تلو الكرة من الأحداث والحقائق لأعيش كما أريد.

الآن أريد أن أتطهر من ذنوبي كلها بهذا الكتاب وأنا بين الخرائب ودوي الصمت في أذني وعقلي.

الآن لابد من الإعتراف، فالموت قاب قوسـين أو أدنى مني. الرعب يذيب روحي في كل ساكنة أو حركة هواء .

الكل رحل، ولعلي الوحيد في هذا الدمار.

ما الحكمة في بقائي وحدي هنا وحيداً سوى أن أتعذب!

إذاً، لأعترف بكل الحقائق، لعلي أتحرر من ذنوبي وأجد لي بشـــرا خليلاً ومؤنساً معينا على هذا الخراب.

ها أنا بعد زمن لا أعلمه ومنذ الكارثة، مازلت مفجوعاً بابنتي ولَم إجدها.

بحثت عن أيّ من الناجين، فوجدت رجلا قريبا على ســني قوي البنية أكثر مني، قلت أرافقه لأدفع عني الوحشـــة ونصـــبح اثنين، وباجتماعنا تصغر المسافات، وتقترب الأهداف.

في البداية كان محمود - وهذا اسـمه - مذعورا مني، متوجسـا لكننا حين بحثنا مع بعض عن طعام، إرتاح لي وربما كان مجبرا..

بعد رحلة بحث بين الصخور والخرائب. كنّا نسير ولا ثقة لنا بالحياة. كان بعض الصخور حارقا، والصهارات تملأ الأماكن، فكم مرة تعثرنا وكدنا أن نقع في حفرة من حفر المواد المنصـهرة والكبريـت والمواد المتفحمـة والغازات الخانقة .

أخيرا وجدنا قبواً، لانعرف هل كان محلا تجاريا سـابقا أم ماذا، فالكارثة لم تترك من معالمه سوى حفرة، عليها حجر وتراب، لكننا اكتشفناه من خلال علبة عصـير أناناس وجدناها قد قذفت خارجا بالقرب من تلك الحفرة، منها عرفنا وجود قبو قد يحتوي على معلبات أخرى.

حفرنا بأظافرنا وبأحجار متطاولة وجدناها تشـبه السـكين، هجم علينا اليأس للحظات، تعمقنا بالحفر، انهالت علينا أحجار كثيرة وكدنا أن ندفن مع حرارة عالية وروائح لا تحتمل.

كنّا نتوقف للحظات، ننظر بعيني بعض بيأس ونواصـل الحفر إذ لا خيار لنا سوى هذا الأمل الضعيف بوجود طعام يبقينا على قيد الحياة.

أرهقنا التعب حتى كدنا نترك الحفر ونقنط، لكننا أخيرا عثرنا على قنينتي خل صغيرتين، ولَم نعثر على أي شئ سواهما في تلك الحفر التي أضعنا بها أكثر جهدنا الباقي.

انتصر الأمل تلك اللحظة التي لاشيء بها يدعو للأمل بعد.

اقتسمناها، كل واحد قنينة.

أعتقدت أن محمود اطمأن لي ومنحني ثقته، لكنه كان رجلاً مذعوراً، صامتا طوال الوقت، غريباً، وهل في ظروفنا من شيء ليس بغريب!

كانت نظرات محمود تشبه نظرات العصافير الخائفة، يتلفت وكأن الشر يأتي من كل مكان. قد يكون معه حق في هذا، فنحن لا نعلم من أين يأتي الشر.

رغم كل شيء ومازال عندي قوة تجعلني مطمئنا الى أنني لن أموت، بل سأحيا وسأكون أشهر من يبقى على وجه هذه الأرض، ولا أعرف مصدر تلك القوة.

ستكون مكانتي المستقبلية هي الهدف الذي أفكر وأعمل به وها قد تحققت رغبتي بخراب العالم وموت من كان قادرا على التفوق علي.

يجب أن أكون المتفوق الوحيد في كل شيء، سأحاربهم جميعا وأفسد كل نبوغ وإبداع حقيقي إن وجد..

سأكون أشهر سياسي، وأشهر أديب، وأشهر فنان، سأكون المعلم الأول، والمثقف الأول.

تحدثت مع محمود عن ضرورة الانضمام لبعضنا، لكنه بالبداية كان متوجسا، متردداً.

سرنا للبحث مرة أخرى عن طعام، وبعد عناء وجدنا مخزنا تحت الأنقاض والصخور، به علب من المربى، هجمنا عليها كل واحد يريد أخذ أكبر قدر له، رأيته وقد استطاع أن يضع في جعبته أكثر مني، وحيث محمود

مطأطيء الرأس يجمع العلب، بادرته بضربة على رأسه مستخدما قنينة زجاجية ثقيلة من المربى، كسرتها برأسه فأقعى بمكانه مدلياً رأسه النازف على كيسه المليء، سحبت الكيس وتركته سابحا بدمه يسير الى مصيره المحتوم.

الآن عدت وحيدا في هذا الخراب الرهيب.

ما الذي أفعله لأدرأ عني وحشة الأرض ؟

ليس لي الآن سوى هذا الدفتر الذي علي كتابة كل شيء به علني أنسى وحدتي، أو لعلني أطيب من مرضي وأتطهر مما فعلته بنفسي .

يأويني الوقت وأطويه، ولا أدري كم من الساعات مضت علي، فلاشروق الشمس الآن كمان كان، ولا أرى قمرا أو نجوما لأعرف الليل من النهار، سديمي لون السماء وكل شيء معتم. أحيانا أجدني قد غفوت دون ما أدري.

وجدت بركة ماء عكر، أخذت حفنة بين يدي وقربتها من فمي ففاحت منها رائحة نفاذة، لكن لا خيار لي أخذت منها جرعة، شعرت بمرارتها في حلقي، وبلعتها على كره مني، لأنني لم أَجِد ماءً سواه.

آه يا أمي تعالي لتجدي ابنك الذي خفت عليه من كل شئ، وسقيتيه العسل، يشرب الآن ماء عفنة..

سأدون كل شيء هنا، في دفتري الذي أعلقه برقبتي، أنه طائري الذي في عنقي، سيقول عني كل شيء، فليس لدي ما أفعله الآن، سأدون الماضي

أيضـا، لابد من تدوينه لأن الحاضـر مختصـر جدا، ومرعب جدا، وليس فيه مايكتب بعد في هذه الوحدة الرهيبة.

كل شـئ له علاقة بالآخر، وعندما لا يكون في حياتك آخر أبدا، سـتنتهي رواياتك، وتنتهي كتاباتك، وتذوي افكارك، وليس أمامك سـوى وصـف بسيط إنشائي لما تراه من الدمار الذي يختصر في جملة كلمات لاغير هي:

الخراب ، الرعب، الدمار، الهلع، اليأس، الموت..

هكذا يكون كتابك منتهيا بسـرعة، فماذا سـتخلف للأجيال الآتية إن طلعت في الأرض أجيال جديدة ؟

حينما يتوقف التفكير بالمستقبل ساعة يكون غامضا ومشوشا ولا طريق للتفكير به، يغلق الخراب الشامل كل ثغرة للأمل، ثم تُطفأ أنوار الغد أو أي فرح آتٍ، فلم يبق أمام المرء غير الماضـي والعودة اليه، لهذا كان عالمنا العربي عالم كان وأخواتها بامتياز، وكانت شـعوبنا تعيد وتصـقل ماضـيها ولاتلتفت الى المسـتقبل سـوى من ناحية المنفعة الشـخصـية فقط، لأن حكامنا والطامعين بأوطاننا أغلقوا علينا دروب المستقبل ...

الآن لا رجاء بعد، لقد مات الزمن مع خراب الأرض، مع هذا الاغتراب المهول أجدني متحسـرا على لقمة تسـند جسـدي بعد أن انتهت كل المعلبات التي دفع محمود حياته من أجلها. انتهت المعلبات منذ فترة لا أعلم كم زمنها، فلا ساعة عندي ولا اعرف الليل من النهار، وها أنا اتضور جوعاً.

سـأخط كتاب اعترافي برغم كل شـئ، سـأحاول فتح عيني مع كل هذا السخام والرماد والحرقة. لابد وان أكتب كل ما رأيت قبل موتي القريب.

سـأعترف بكتابي بكل شـيء علّ الاعتراف يخلصـني من هذا الرعب الذي يلف كل ماحولي، علّ الاعتراف بالحقيقة يفك أسـري ويوقظ المعجزات، فلا أمل لي بعد سوى انتظار معجزة الخلاص من براثن هذا الخراب.

ولكن كيف ؟

ماذا سيحلّ بي ؟

هل سـيرسـل الله لي- أنا الخاطئ- طيرا ضـخما يحملني بين جناحيه، ويطير بي صوب الأعالي نحو عالم أجمل من هذا الدمار المرعب ؟

جسدي منهك. الجوع يعضني فيهد حيلي.

.....

أنا سالم باقي يحيى

أســير بين الخرائب، باحثا عن ابنتي، التي أضــاعتني وأضــعتها وكما أضعت أمي من قبل..

أسمع دوي الصمت المرعب، وهبوب الريح الذي يطيّر شيئًا من غبارٍ نتنٍ، برائحة الجثث، والأماكن المظلمة الدالة على حجم الكارثة.

العجيب أنني أسير منتصرا، شاعرا بنشوة البقاء وسرّه رغم كل هذا الخراب.

اســأل نفســي، لماذا أبقاني الله بكارثة غيّبت من كان هنا من البشــر وأبقاني وحدي وآين أنا الآن ؟

هل أنا أحســن منهم لهذا منحت فرصــة للبقاء ياترى ؟ هل انني محظوظ أكثر ؟ أم هم الأحسن ولم يتعذبوا ؟ .

تطلّ من بين الأنقاض عيون أفعى تفح لكنها لاتقترب .هيأت سلاحي من الأحجار لكل ما يمكن عمله فالحذر واجب، والأرض الآن مســتباحة للمجهول وقد تحتلها الزواحف..

لأكمل لكم كتابي هذا، كي تعرفوا أنه مامن نتيجة بلا ســبب، نعم كل الكون، المدارات، الشــمس، القمر، النجوم، والمنظومات الشــمسـية الأخرى المكتشفة وغير المكتشفة، جميعها تختل بسبب تلك الطبيعة البشرية.

أحيانا تكون العدوانية لا مبرر لها، عرفت ذلك الآن وبعد فوات الأوان، ورغم كل هذا الخراب، يتصرف في داخلي ذلك الذئب الذي رباني وعاش معي طوال عمري.

ترى هل أصير يوما ما طيبا وأتغير، فأصبح مثل بعض معارفي أو بالحقيقة ضحاياي، الذين لم يفارقوا ذاكرتي وكوابيسي؟

أحيانا أشتهي أن أكون بريئا كما كنت قبل الوقوع بالخطايا، لكن هذا الشعور يزول حالما أَجد مصلحة ما أو سباقا داخليا سرّي النداء بيني وبين شخص آخر على منفعة، أو إمرأة، أو أي شيء نتنافس عليه.

هل يليق بي ياترى شعور الأبرياء؟

أيضا سأعترف لكم بصراحة، بأنني أرى البراءة شيئا ما أقرب الى التخنيث، نعم بعرفي - أنا الذئب- فالبراءة أنثى والشر ذكر كما هو لفظهما..

لا أعرف كيف تستسيغون ملامح البراءة، حتى الأنثى لا أحب ملامحها البريئة، بل أحب الجمال القاسي، الخارج عن القانون، الجمال الأقرب الى الشر، وعمليات التجميل التي أدخلتها الممثلات للأعمال الفنية تعج بهكذا جمال، شفاه غليظة منفوخة، حواجب عريضة سوداء مرسومة بالوشم، وقاحة بالعينين المحاطتين برمشين كمكناستين صغيرتين، شئ ما يذكر بان صاحبة هذا الجمال قريبة من الجريمة، الغش، الدعارة، والخروج عن النظام العام، أي قريبة مني ولو في السر..

أحيانا أقف أمام المرآة محاولا تجسـيد تعابير الأبرياء بوجهي، قد أنجح للحظة واحدة، ثم تفسـد النظرة وأنتبه لتقريب الحاجب وأرى بريق قسـوة النظرة، فأشـيح بوجهي عن المرآة، المرآة أنثى هي الأخرى فمالي والتخنث..

الآن، أجلس على صخرة. أشعر بالدوار وأرى أطيافا سودا تتراقص امام عيني..

أحاول أن أرى جيدا، أفرك عيني براحة يدي لتنجلي الرؤية، كأنني رأيت أمي وهي شابة تحاورني..

آه، يقولون الذي يقترب من الموت يسترجع حياته كشريط مسجل، يدور في عقله، فيرى حياته كلها منذ ساعة ولادته، ثم يعود به نحو اللحظة الآنية، وكأن دوران الأرض عنده ينقلب ليعود به القهقرى، هو وحدة الذي يحصل له ذلك، وتبقى الحياة تدور بالآخرين الأحياء ذات دورتها المعتادة، عجيب أمر الحياة والموت!

لعلّي اقترب من النهاية حقاً، فها أنا ألمح أمي وهي تقص علينا قصصها الجميلة، قصصها التي أنكرتها أمام زوجتي ولَم أتحدث بها عنها، وأنكرتها أمام ابنتي، وأنكرتها بيني وبين نفسي فلم ألتزم بقيمها.

يا أمي، ما أحوجني اليك الآن.

هل اقتربت ساعتي ياترى ؟

تذكرت أبيات شعر حفظتها من أمي للشاعر القروي رشيد سليم الخوري، كانت أمي ترددها وهي شارقة بدموعها:

ولو عصفت رياح الهمّ عصفا

ولو قصفت رعود الموت قصفا

ففي أذنيَّ عند النزع صوتٌ

يحوّل لي عزيف الجن عزفا

فيطربني وذلك صوت أمّي.

ها أنا أسمع صوت أمي حقاً، اسمعه يقترب، وبوضوح لا لبس فيه. الصوت يدنو مني، يهمس لي بنقاء. أمي تقص علي حكايتها، إنني أسمعها فعلاً:

كان ياما كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان..

كان الشاب الفقير علي صديق ابن الملك نائما حينما فاجأه صوت حمامة ليوقظه، حمامة لايعرفها، واقفة على شجرة التوت، بحديقة يطل عليها شباك غرفته، كانت الحمامة تناديه:

أيها الشاب علي إنهض من نومك

إنهض يا علي

إنني أعرف أن ابن الملك صـــديقك الحميم، وقد اختارك من بين كل شباب البلد لتكون نداً له، أخا، عضيدا وأنيسا.

إفرش ياعلي روحك على كبر سـجادة قصـر الملك ودعها تحفّ بصـديقك الشـــاب الطيب، البريء ابن الملك، إحفظ حياته واحمه كما حماك وقدرك ورفع من شأنك حتى صرت حينما تمر بالشارع تنحني لك رؤوس الرجال وجباههم.

أنا أعرف ياعلي بأنك تحبه أكثر مما يحبك لأنك صديقه الفقير الذي منحه الأمير شـرف صـداقته من دون شـباب البلد جميعا، وأعرفُ أنك لسـت ناكرا للجميل، ولكن، عليك أن تعرف أنه يحبك كثيرا، لأنك تتعامل معه بلا طمع ولا غيرة من سـلطان ومكانة، أو مال وجاه ولحرصـك عليه وصدقك معه.

فإن أردت إثبات حبك الكبير هذا له، ماعليك إلا أن تفتديه بروحك، وســيكون هذا الذي أأمرك به الآن، امتحانا لصـــدق حبكها وأخوتكما لبعض، ثم تضيف الحمامة قائلة بصوت أميّ :

ســـأخبرك بما لا تدري، وعليك الالتزام بنصـــيحتي، وإن لم تلتزم بها سينالك مالم تتصوره، فإن كشفت السر سيتحول نصفك الى حجر .

يستمع علي الى قول الحمامة مصدوما. تكمل كلامها:

إعلم ياعلي أن الملك اشـــترى لابنه الأمير حصـــانا ذهبيا كما تمنى، وفي الغد سيعرض الحصان على الشعب كطقس للتباهي من قبل الملك بهذه الهدية النادرة، وسـترى كم أن هذا الحصـان مبهر وجميل، حصـان من

ذهب ٢٤ قيراط، مرصع بالألماس والجواهر يا علي، رؤيته تخطف الأبصار وتفتح النفس، سترقص له القلوب، سيطير الأمير فرحا حينما يرفع الستار عن هذا الحصان الذي لم يصنع مثله من قبل، سيفرح الأمير به ويكون أميراً فوق العادة، ولكن.....

يصمت صوت أمي قليلاً ثم يرتفع محذرا بقول الحمامة :

إن كنت تحبه حقا وتخاف عليه ياعلي، فلابد من إنقاذه، فالحصان مسحور ومسموم، والأمير سيموت ما أن تطأ قدمه الركاب.

ماعليك يا علي إلا أن تأخذ معولك وتحطم الحصان الذهبي، عليك أن تجعله هشيما قبل أن يرتقيه صديقك العزيز الأمير الطيب، أو أن تلمس قدمه ذرة من ذلك الكيان الذهبي الجميل، وأحذر يا علي ولاتنسى أنك لو بحت بالسر الذي دفعك لتحطيم الحصان، سيتحول نصف جسدك الى حجر..

آه يا أمي ما أجمل صوتك ورقته، وما أجمل قصصك.

غشيتني الدوخة للحظات، شعرت بالدوار لولا أن هواءً حارا لفحني فانتبهت على صوتها يكمل الحكاية:

طارت الحمامة حيث استفاق علي من نومه مذعوراً، يحمل على ظهره جبلا من الهموم والأسئلة، ينوء برعب ماسيقوم به، وبفظاعة مايلاقيه من الملك وحاشيته والشعب جميعا.

كيف يحطم الحصـــان الذهبي ؟ يحطم قلب صـــديقه الأعز ؟ يحطم روح صداقتهما وثقتهما ببعض ؟ أين يولي من حمل هذا الضيم الذي حط عليه في ليلة بلا ضوء قمر ؟

كيف يضئ روح صديقه بعد الآن وماذا سيقول له ؟

أين يخبئ عينيه ساعة تحطيم الحصان ؟

كيف ستلتقي نظراته بعيني الأمير بعدما يقوم بهذا الفعل الشنيع ؟

ماهي ردة فعل الشـــعب، ومتســـلقي المواقف، أو الطامعين بصـــداقة الأمير، وبائعي ضمائرهم بالتقرب من القصر على حساب الاخرين ؟

كل شـــيء تشـــابك في رأس علي حتى غدا دماغه مثل خيوط متداخلة لاطرف لها ولا يعرف أولها من آخرها، متداخلا ببعضـــه، لا يفرز فكرة واضحة واحدة لحل الورطة التي سقطت عليه فجأة.

يقترب صوت أمي أكثر لتقول:

لكنه ســيفعل ما أمر به لإثبات صــدقه وحســن نواياه للأمير مهما كانت المظاهر خداعة ولا توحي بذلك، خاصـــة بعد تحطيم الحصـــان الذهبي الذي سيكسر معه قيما ومقاصد كثيرة.

آه من بـاطن الأمور الـذي يختفي بعيـدا عن الأعين، وَيَـا لظـاهر الأمور الخادع والمخاتل الذي يؤدي الى الهلاك أحيانا.

يختفي صوت أمي..

آه يا أمي ، أين انت لأخبرك بأني كبرتُ كثيرا، صرت أفكر، وصرت أعرف ماكنت ترمين له، صـــرت أفرق بين الظاهر والباطن، وأعرف بأنه دائما على الإنسان إثبات صدقه وحسن نواياه للناس وإلا ظلموه، خاصة أمام من يملك المال والسلطة..

نعم يا أمي هكذا سارت الدنيا حتى لحظة الخراب. ليس هذا فحسب بل على الضـــعفاء والفقراء إثبات صـــدقهم للأقوياء الأغنياء، وعليهم تقبل صفعاتهم المباشرة وغير المباشرة. معادلة كونية تأريخية ظالمة يا أمي، فهم يملكون كل شيء، والفقير الضعيف لايملك سوى قلبه ..

ها أنا اليوم ضـــعيف، وحيد، فقير يا أمي، أما من نفحة نور تنقذي بها ابنك الضال ليدرء الانهيار ويعتدل ؟

قلت هذا بجهد وتعب ولا أدري إن كان مسموعا أم لا، ولكن صوت أمي عاد وكأنها سمعت كلامي، صوتها يسيل ليكمل القصة، يسردها كما في الســابق، حيث أجلس مع بقية أطفال الأقرباء نستمع بلهفة وننتظر النهاية، وكم كنا نسأل أنفسنا بحيرة:

كيف ســيخرج علي الفقير من هذه المعضــلة، ومن الذي يخلصـــه من الملك وحاشيته ومن الشعب بعد ذلك ؟

يعود صوت أمي قائلاً:

في اليوم الثاني كانت الطبول تدق منذ الصــباح لتجمعَ الناس بالســاحة المواجهة للقصر، وليشهدوا حدثا ساراً.

هرعت جموع غفيرة من أبناء الشعب لتلك الساحة، حيث قصر الملك المزين بأجمل أنواع الجواهر من لؤلؤ، ومرجان، وألماس، وأحجار كريمة تذرذر نورها فتقارع أنوار النجوم ليلا، وفي النهار كانت تتلألأ تحت أشعة الشمس، منثورة على رأس القصر تاجا كبيرا، وأبهة مابعدها أبهة.

صاح الحاجب :

أيها الشعب باسم الله وباسم الملك، نرفع اليوم الستار عن هدية مليكنا لولي العهد المفدى، فليحيا الملك

رددت الجموع: يحيا الملك، يحيا الملك

رفعت الستارة عن حصان ذهبي، يبرق بنور يخطف الأبصار ويذهل العقول بالجمال، ودقة الصنع، وتناسق ألوان، قد ُرصّع بالمجوهرات اللاهثة بالضوء، شيء لم تر الأعين مثله من قبل، تحفة نورانية مشتعلة بريقا. كان كل شيء في الحصان يقول إنه معجزة من معجزات الخالق ويشك بكونه صنع بشر .

الناس ينظرون للمصنوع العجيب هذا ويسبحون أو يصمتون مندهشين.

كان شيئا أقرب الى الحلم منه الى الحقيقة، فلم ير أحد أو يسمع أن حصانا ذهبيا مرصعا بالجواهر ممكن أن يسير أو يتحرك، لكنهم تخيلوا أن هذا الحصان يقدر على ذلك.

إنهم يرونه الآن بعيونهم التي صـاروا يفركونها ويهزون رؤوسـهم خوفا من الوهم أو انه حلم من أحلامهم..

بعد التصـفيق وصـمت الانبهار والتمتمات، اقترب الأمير من الحصـان ليضـع قدمه على الركاب، وإذا بعلي يهجم عليه وبسـرعة البرق يبعده ثم يشـهر معوله ليحطم الحصـان بضـربات قوية متتالية، يسـقط الحصـان قطعا تتناثر أمام ذهول الجميع.

يهجم الحرس والحاشية مندفعين بقصد فصل رأس علي عن جسده على هذه الفعلة المهينة، لكن الأمير أحاط بجسـد علي كالسـوار بالمعصـم، التصق به طالبا من الجميع الابتعاد عنه وإعادة سيوفهم لأغمادها .

في هذه اللحظة الرهيبة، اللحظة الغرائبية بكل مواصـفاتها، أفلت علي نفسـه من يدي الأمير ولَم يكف عن إكمال مهمة تهشـيم الحصـان، فأخذ يضـرب الحصـان بكل قوته، حتى تطايرت قطع المجوهرات الثمينة كالشهب من حوله.

أما النَّاس فقد أخذتهم الدهشـة، لا يعرفون ما الذي يحصـل، لكن جمعا منهم، هبوا ثائرين يريدون الانقضاض على علي.

كان غضب الملك أكبر من كل الوصف، وثورته أشد سعيرا، فقد أشتاط غيظاً وطار الشرر من عينيه حتى خرج عن طوره صارخاً:

ماهذا أيها الوغد ؟وكيف تجرؤ ؟

هبّ الحراس مشـرعي سـلاحهم، متجهين صـوب علي، وجموع الشـعب تؤلبهم على قتله.

إقتلوه، إقتلوا الخائن الجاحد

إقتلوا الحقير

إقتلوا المجرم المريض

كانت هذه الكلمات تتعالى من حناجر الناس وبأعلى مابها من قدرة.

لقد غضب الملك المفدى وثار، وأخذ يرعد ويزبد، كما غضب معه كل المدعوين أو من جاء ليرى هدية الملك لابنه والتي أعلنوا عن وجودها كأجمل هدية ملك لولي عهده.

كانت السيوف تلهث حنقاً ورغبة بقتل علي، والناس تصرخ بوجهه وتتهمه بالخيانة والغيرة من ابن الملك وهو الفقير الذي لايستحق صداقة الأمير.

هبت الجماهير الغاضبة تريد تمزيق علي، لولا ان ابن الملك كان نبيلا واحتوى علي بين ذراعيه وجسده في كل هجمة من هجماتهم وقال :

اقتلوني معه إن أردتم قتله، أرجوكم ابتعدوا عنه وإلا سنقتل معاً...

يتوقف الصوت قليلاً، وكأن أمي تشرب جرعة من الشاي كما كانت من قبل حين تقص علينا الحكايا .

أشنف آذاني أكثر وكأن روحي بدأت تعود إليّ مع صوتها، وأعود كما كنت طفلا أسعد بتضحية الأمير بحصانه الذهبي مقابل حياة صديقه، كما أعجب بوفاء وشجاعة علي الفقير .

يعود صـــوت أمي يكمل الحكاية وكأنها مصـــممة على إعادتي للحياة ومصـــممة على تذكيري بالقيم الســـوية، كأنها مصـــممة على إكمال كتابي هذا:

هنا أعلن الملك على لســـان حاجبه بحزن وغضـــب إنتهاء الطقس وأمر الناس بالانصـراف الى حياتهم، ثم دخل مع حراسـه وحاشـيته وضـيوفه القصـــر. أما الأمير فدخل متجها الى جناحه، ومازالت ذراعاه محيطتين بعلي كحماية له، دخلا وأغلقا عليهما الباب وكان علي خجلا من الأمير لايستطيع ان يرفع رأسه وينظر في عينيه.

كان علي صـــامتاً لا يجد أية كلمة تفســـر للأمير مافعله، فكلمة واحدة يقولها عن السر سيتحول نصفه الى حجر.. قال الأمير:

أرجوك ياعلي لاتقل شيئا، أنا لم أسألك عن شئ فلا تشيح بوجهك عني، فداك الحصـــان وفداك روحي، ومهما قال أبي أو الناس عنك فلم أكترث ولَم أصدقهم، لأن ثقتي بك أكبر من كل العالم، وحبي لك كصديق وأخ لاتوازيه كنوز الدنيا.

عانقه بحرارة وأخذ يضـحكه ببعض نكات تعودا على تداولها فيما بينهما.. توقفَ صوت أمي وغاب

آهٍ، أمي..

صـوتك يداويني، أشـعر الآن بقدرتي على الحركة، وأشـعر أن سـائلاً بارداً دخل جوفي فأنعشني.

الله ياصوت أمي، الله ياحنانها، الله ياعطاءها الذي يحييني.

تفقدت جسدي، فلم أَجِد به عطبا. تفقدت أقدامي وجدتها خارج الحفرات التي أحدثتها قبل قليل بسبب محاولاتي حراكها .

هل كان الصـوت أمي حقا أم ملائكة انتشـلتني من براثن موت محقق ؟ لا أدري..

.....

أنا سالم باقي يحيى

أسعدني صوت أمي، فقلت طالما استطيع السير لأسير بحثا عن ابنتي وعن ناجين في هذا الخراب، وبحثا عن طعام. تمنيت أن يعود صوت أمي ليكمل لي الحكاية التي نسيتها.

لا أدري أين أنا، وهل الخراب لكل القارات وكل البلدان، أم إنه في بلدنا وقارتنا فقط ؟

ليس هناك ما يدل على وجود حياة بالبعيد أو القريب، فلا اتصالات، ولا شبكات، ولا كهرباء، ولا طرقات كما اعتدناها.

سرت مسافة ثلاثمائة متر، تذكرت الرضيع الذي تركته يموت جوعا، فكرت أن أعود اليه علني أَجِد ما أنقذه به، سرت بطاقة منحني صوت أمي إياها، لكن وهدة ليست عميقة جذبتني اليها فسقطت بها، سقط فوقي تراب من حوافها. شعرت بثقل جسدي مرة أخرى. رفعت رأسي الى السماء. فتحت فمي بكل ما أستطيع وصرخت بكل قواي

النجدة

ردد الصدى صوتي ساخرا

النجدددددددههههههه

صرخت مثل الأطفال وبلا وعي

ماما

يعود صوت أمي، يقترب ليقول مسترسلا وكأنه لم ينقطع:

ومنذ ذلك اليوم، أصبح لعلي أعداء كثر في القصر والمدينة، وصار بلا ناصر ولا معين سوى الأمير الذي يزداد حبه لعلي يوما بعد آخر.

كان الأمير طيبا، يقاوم الجميع دفاعا عن علي، ولا يأنس لأحد سواه، مما أغاظ شباب البلد جميعا لأنه استأثر بقلب الأمير الذي تحمل منه أكبر إهانة سمعوها ورأوها بالتأريخ.

كانوا يحسدون علي ويكرهونه في السر قبل حادثة الحصان الذهبي، أما الآن فهم لايتورعون الإعلان عن كرههم له علانية، بل هم يعتبرون كره علي موقفا وطنيا مشرفا أمام القصر والملك، هم يحسدون علي الذي بات حزينا، منبوذا، شاعراً أنه كبر خمسين عاما أكبر من عمره في ذاك اليوم المشؤوم الذي غير حياته وقلب أحبته أعداءً، حتى الخدم في القصر صاروا ينظرون اليه شزرا، ويؤدون واجباتهم معه بغلّ وملل وكره، وحينما لايكون معه الأمير كانوا لايتورعون عن إسماعه كلاما جارحا يؤذيه ولكنه لا يرد، فبماذا سيرد وماذا سيقول لهم بعد كل ما فعل ؟..

مر أسبوع على ذاك الحادث، وعند فجر يوم دافئ، وإذا بصوت الحمامة ذاتها يعود مرة أخرى، حطت الحمامة على ذات الشجرة قرب شباك علي، تنادي عليه أن انهض ياعلي واسمع ما أقوله لك وهو امتحان آخر لصداقتك مع الأمير .

استفاق علي مذعوراً، حاول أن يصم أذنيه، لكن صوت الحمامة كان يخترق كل الحواجز وكأنه آتٍ من السماء.

قالت :

إن كنت تحب الأمير حقا، فالأمير سيزف نهاية هذا الشهر على عروسه، وسيقام حفل ملكي كبير لذلك، ولكن عليك مهمة لابد منها للحفاظ على روح الأمير .

دُهشَ علي ما أن سمع كلام الحمامة، لأنه يعرف أن الأمير حقا سيزف نهاية الشهر، وأن الملك أراد تخفيف الصدمة على ابنه من خسارة الحصان الذهبي ففكر باستعجال زواجه من حبيبته..

وتكمل أمي القصة على لسان الحمامة بقولها:

أعرف يا علي أن المهمة صعبة جدا وتحتاج قلب أسد لتنفيذها، لكن ليس أمامك سوى ذلك، وماعليك القيام به يوم الزفاف هو أن تتجاوز عيون كل الحرس والعسس، والعائلة الملكية، وجموع الحاشية والمهنئين من الضيوف، وعليك تخطي جموع الشعب الغفيرة، عليك أن تفلت من كل السيوف المشهرة والمحيطة بالملك وعائلته وأفراد القصر وحماياتهم، وبسرعة البرق تدخل غرفة العريس قبل أن يدخلها هو أو أي شخص آخر، وأن تسارع الى عروس الأمير التي ستكون وحدها تنتظر عريسها، وتقوم بقص ضفائرها الطويلة، ووضعها تحت وسادة الأمير، وإن لم تفعل ذلك، ستتحول ضفائر العروس فجر اليوم التالي الى أفاعي تلتف على رقبة الأمير فتقتله، ولا تنسى بأنك إن بحت بالسر سيتحول نصفك الى حجر..

تسمّر علي في مكانه، مهموما، أمسك برأسه بين يديه وكأن رأسه بين جبلين ضاغطين عليه.

آه، لقد اسودت الدنيا بوجهه وماكان يعرف كيف يفكر.

ماذا سيقول ؟ ماذا سيفعل ؟

كل شيء غدا مدلهما، غير واضح، شعر بالحرارة تصعد على رأسه وعينيه فتلفحه كشواظ النار .

من أين جاءته هذه المصيبة الأخرى وقد خرج من الأولى بشق النفس.

ماذا سيفعل ؟

ومن يرضـــى بهذه الفعلة التي تمس شـــرف الأمير وشـــرف الملك، وهل يمكن أن يفلت من أيدي الحاشـية والحرس ؟ ولو افترض انه سـيفلت من أيديهم، فهل يفلت من أيدي الجموع الغفيرة التي ستحضر زفاف الأمير.

آه ، ياويلي كيف الخروج لي من هذه المصيبة.

تذكر علي تلك الشـــابة الشـــبيهة بالفراشـــة، خطيبة الأمير، والتي أحبها الأمير جدا حينما رآها أول مرة في ذكرى حفل تتويج والده، وهي ابنة أحد الوزراء المقربين للملك، كانت مثل غصـــن ريحان يذرذر العطر والجمال.

تذكر عيني الأمير حين يراها، يا الله، كيف ســـيواجه عينيه بعد الفعل الشـــنيع؟ العينان اللتان يتحولان الى جوهرتين لامعتين، تبحثان عن قلب بحر تستقر فيه لتهدأ.

كان الأمير يعشقها عشقا أبيض قراحا، عشقا ضم كل عطاء روحه الباحثة عن دروب البذل والتضحية، ذلك الأمير الذي لاينتمي بروحه للقصر، ولا

للذهب، والأفراح، فكان لقاؤه بتلك الفتاة مثل خيط شمس يدخله ليهتز ويبتهج..

كيف سيخون علي صديقه ويفسد عليه فرحه الوحيد ويومه الأهم، كيف سيغدر به وهو الذي كان يحدثه عن عشقه، وعن لقاءاته بخطيبته، عن ذلك الخجل المحبب بنظرات الفتاة، عن لمسة روحها حين يصافحها فترتعش مثل عصفور صغير يتعلم الطيران حديثا، عصفور يخشى السقوط على الأرض ويرتجف قلقا..

كان يحدث علي عن أحلامه بها، عن طرافة روحها ،عن خصلات شعرها المتموجة، عن ضفائرها التي يغيب فيهما الخيال ويدوخ، كم كان يعشق تلك الضفائر التي تمنى لو يغفو عليها ويغيب عن الدنيا، كان يقول شعرا بخصرها النحيف، وطولها الأهيف، يلهج بوصف كل ملمح بتلك الفتاة المعشوقة، سامية الأصل، رفيعة الأخلاق، رومانسية الروح، يطيل بوصف عينيها، ورموشها، ثم يخجل لكثرة كلامه عنها، ويطلب من علي الغفران لكثرة مايحدثه عنها ناظراً الى يديه قائلاً له:

علي، يا صديقي الوحيد، بعد أيام قليلة، ستحتضن يداي هاتان حبيبة روحي، سألمس ذلك الخصر، سأمتص شرارة شفاهها القرمزية، سأتوسد شعرها الأشقر وألاعب تلك الضفيرتين العطرتين..

يصمت صوت أمي لحظات، بعدها تتنهد لتقول:

آه من الخيانة، كيف سيخون علي كل ذاك، وهو الأمين الذي لم يترب على الخيانة ولا يعرفها..

ثم تكمل الحكاية:

رفع علي رأســه نحو السـماء داعيا الله أن يكون عونا له بهكذا ملمّة ألمت به.

كانت دموعه تجري سيلا، يختلط عنده الحلم بالواقع ليرى وحوشا كاسرة تركض وراءه تمزقه، فينتفض خائفا، كان يرى جسـده وقد تقطع وأصـبح أشــلاء بين أيدي الجيش، والحرس، والرعاع، والمتملقين من الجمهور الغفير الذي سيأتي ليوم زفاف الأمير .

أخذ الخوف من علي مأخذه، لكن نظرة الى السـماء كانت تعيد له بعض الهدوء والأمل وتربت على كتفه ليعزم على القيام بما أمر به.

توقف صوت أمي عن سرد الحكاية، لكنني شعرت أن روحا دبت بجسدي وقوة لمستني.

أمي توقدني من جديد، تمنحني طاقة عجيبة تتسـلل الى جسـدي فأقوى على الحركة، تدمع عيناي وتنفتح روحي، فألوم نفســي على مافعلت من شرور قبل الخراب وبعده.

فجأة وجدت نفسـي أهرع باحثا عن محمود لعلّي ملاقيه، لعلّي أجده حيّا فيكون لي عونا في وحدتي، وأكون له شــريكا في محنة العيش بهذه الكارثة.

عدت رجوعا الى الطريق الذي سـلكناه أنا ومحمود، أو هكذا تخيلت لأن الدروب بلا معالم ولا ملامح، فلا أزقة، ولا شـوارع، ولا أسـماء، والأرض خلاء قفر، إلا من الحفر والنيران والرماد وكتل الحجارة والخوف.

سـرت بهدف ايجاد محمود والوصـول اليه علّه لم يمت، علّ السـماء ساعدته ورحمته لأنه أطيب مني فهو ضحيتي، ولأنه المقتول وأنا القاتل، وشتّان بيننا في ميزان العدل..

تحركتُ بدافع من صـوت أمي وذكرها الذي لم يفارقني بعد وقوعي بين براثن هذا الدمار .

أمي التي قتلتها ببطء حتى رحيلها، أمي التي طردتها من بيتي وحياتي وحرمتها مني ومن ابنتي، هاهي تمنحني الطاقة ساعة جحيم، وتستبدل شري بخيرها..

سـرتُ بطاقة أمي، أنا قطعة قلبها العاقّة، الناكرة، قطعة روحها المتمردة الجارحة لها والتي نامت بين ثناياها سـكينة صـدِئة تؤذيها كلما حنّت لرؤيتي .

ها أنا أسـير، أعبر الحفر والكتل الحجرية، بقوة لا أدري من أين أتت، ولا تفسير لها سوى أنها من أمّي، حارسي، الملاك الذي سمعت السماء طلبه..

أصعد نجودا صغيرة، أهبط وهدات عميقة، وأعبر مستنقعات نتنة تفوح منها روائح وأبخرة كيمياوية خانقة، أتقي لهيب حفر حامية، ماسحا بكمي

المهترئ الهباب والرماد المتطاير. غسلت الدموع عينيّ فاتضحت الرؤية أكثر.

يا لبركات أمّي، كل ماتفعله لي محمود، وكل مايأتي لي به طيفها نافع، وكل تذكّر لها روح لي وطول بقاء، بل حياة جديدة تسري في جسدي.

الآن أشعر وكأنني عدت في بطن أمي، هاهي توصلني بحبلها السرّي من جديد، تمدني بنسغ الحياة منها.

ها قلبها يسير معي، أسمع خفقانه الذي يقيني من عثراتي في هذا الخراب المميت.

كانت هي بوصلتي، وطعامي، كانت شرابي في هذا العطش، وهدأة روحي في ضجيج الكون المخيف ودوي صمته القاتل.

صارت روح اميّ هي رضاي عما أصابني من أهوال ربما لم تمر على مخلوق قبلي، كانت هي الشرنقة الحريرية طيبة العبق التي لفت جسدي بهالة غير مرئية كي لا أسقط في تلك الحفر المرعبة بالنار والصهارة الحارقة في العتمة الموحشة.

آه ياروح أمي

كانت رذاذا منعشا في عزّ الحرائق المتأججة، وكانت حنانا دافئا في برد الخوف واليأس وغول الوحدة المارد..

فجأة وأنا اســير بتلك العراقيل عثرت بقنينة، انحنيت عليها، فتحتها، وإذا بها قنينة خل، عرفت منها أنني بالإتجاه الصــحيح نحو مكان القبو الذي تركت قربه محمود سابحا بدمه.

أخذت جرعة من الخل، فأحسست أن دفئا دخل جوفي، وكأنني دخت، فجلسـت بمكاني متذكرا مقطعا من القصـيدة التي تنشـدها أمي والمفضـلة لديها، التي مامرة أنشدتها بلا دموع :

ولو مُلِئَتْ ليَ الجامات صبرا

ولو جرّعتُ كأسَ العيشِ مرّا

ففي شفتيَّ ينبوعٌ عجيبٌ

يحوّل لي كؤوس الخلِّ خمرا

فيسكرني – وذلك ذكر أمي

آه من ذكر أمي الجميل الذي يرافقني ويرمم كل كســور روحي وجســدي على بعد مديات هائلة لا تُحس ولا تُلمس..

صرت أسير الآن بأمل إيجاد محمود، أصبح هو هدفي لأكفر عن ذنبي.

أبحـث الآن عن آخر ضــحـايـاي، الرضــيع ومحمود، ولا أدري هـل سـأجدهما، ولو جثثا اسـتغفر منها وأطلب لها الرحمة وأدفنها على الأقل وكما يقال، إكرام الميت دفنه.

بلغت المكان الذي اعتقد أنه ذاته الذي التقيت به محمود حيث القبو والمعلبات التي عشـــت عليها أياما، لكنني لم أَجِد أي أثر لمحمود، ولا لجثته. صـرت أشـك بذاكرتي وببصـري، وأقول ربما أخطأت المكان وأنا الآن في مكان آخر، لاسـيما أن الملامح تغيرت فالدخان والأتربة ما زالت تغيّب الأثر وتمحو الكثير ..

الآن لا عمل عندي، ولا علاقات، ولا أحد في عالمي هذا، لا شـــيء غير البحث عن ناجين من هذه الكوارث، لكن الندم يقتلني.

لقد أيقظ صـوت أمي بي الكثير الذي لم أكن لأتوقف عنده، كيف رضـيت بنفسي أن أكون حقيرا الى هذا الحد؟

لأتطهر من ذنوبي بهـذا الكتـاب وأعترف، فلعـل الاعتراف يخفف عني محنتي، ولعله يأتي لي بصوت أمي فتكمل حكايتها لي.

....

أنا سالم باقي يحيى

أدون في كتابي هذا شـيئا للأجيال، لعلهم يرون به شـيئا نافعا لهم، إن كانت هناك أجيال ناجية .

أين صوتك يا أمي ليقص علي ويكمل الحكاية ؟

الحياة رواية يا أمي ولكنها غالبا ماتكون مريرة، لأننا نعيشـها كالمخمورين أولا، ثم بأوقات متأخرة نصـحو غالبا فنندم، كل شـخص وروايته، ولكن ماهو عام هو هذا الندم المتأخر.

إن اللاقناعة بالأفكار هي التي تكتب رواياتنا يا أمي، وحكاياتك كلها لم تصمد للأسف أمام غواية الشباب والتيه بالحياة.

لم أجد ابنتي في كل هذا الدمار الهائل، أضـعتها يا أمي كما ضـعت منك بزهوي بالحياة.

أنا سالم باقي يحيى

لســـت حقيرا كما تظنون لكنني هكذا، وهذه طبيعتي، وليس بوســـعي تغييرها، ولماذا أغيرها وأنا سعيد بها ؟

ألا يبحث الجميع عن السعادة ؟

هناك من يجد ســـعادته بالمال، وهناك من يجدها بالحب، وهناك من يجدها بالسـلطة أو الشـهرة، أنا بصـراحة أسـعى لكل هذا لكن مايمتعني أكثر هو شعوري بالتفوق على الجميع وإحساسي بأنني أذكى منهم.

سأسرد عليكم بعض أفعالي التي دونتها سابقا، سأدونها الآن مع شعوري بأنني أكتب ملحمة بصراحتي واعترافي الصادق إذ الموت يحيط بي وليس هناك من هو أصدق من الموتى.

عندما عدت الى الوطن بعد غربة ومن أجل أن أحصل على حقوق كغيري اصـطدمت بشـخصـيات جريئة في اللهاث وراء المال والمصـالح، وعرفت بأنني أخوض حربا لاهوادة بها من أجل إفراغ كيس الوطن من المال، والنفط، والخير.

تعينت مديرا عاما لشـركة مهمة، أول مافعلته هو ذهابي الى الحج وإحراق جبيني ببصـمة الصـلاة، بعد أن كنت خارج الوطن صـديقا للديمقراطيين والشـيوعيين المعارضـين، أجالسـهم في حفلاتهم وأشـرب معهم قناني البيرة والعرق، وأتلصص على نسائهم .

عدت من مكة بلباس الحجاج الأبيض، وبجبيني آثار السجود الذي صار معيار هذه الأيام للدلالة على التقوى والورع. رسمت على وجهي صورة الزاهد وأمسكت بمسبحة طويلة ثم ملأت أصابعي بالعقيق الذي جلبته من بيت الله..

لقد هيأت العدة لدور الرجل التقي الذي لايخرج عن كلمة الحق بأي شكل من الأشكال، أبطأت في مشيتي خوفا على عباد الله الصالحين الراقدين تحتنا، صرت ممن يمشون في الأرض الهوينا.

اعتمدت هذا متذكرا قصة حكتها أمي عن قاضٍ كان يسمى(القاضي ابو جناجل) ومعنى الجناجل باللهجة العراقية هي الخلاخيل التي كان يرتديها ليطرد صوتها النمل والحشرات السائرة على الأرض كي لا يدوسها ذلك القاضي أثناء سيره، فهي أرواح ومن حقها أن تعيش وأن لايؤذيها أحد.

كنت صغيرا عندما سمعت الحكاية من أمي، ولا أعرف هل كان ذلك القاضي حقا رحيما بالنمل ويخشى قتل روح بريئة مهما صغر شأنها وحجمها، أم أنها كانت مبالغة للضحك على ذقون قوم يسلب ألبابهم ذلك النوع من الناس الملتزمين، وتلك الأنكسارات في الوجوه والتي تعبر عن زهد بكل شيء ومظلومية خادعة، وادعاء بالورع..؟

فتحت دارا كبيرة للنشر وأصبح الكتّاب والشعراء والإعلاميون وأغلب المثقفين يريدون إرضائي والنظر الى ابتسامتي، كنت متدينا مع المتدينين، وعلمانيا مع العلمانين.

كنت أحلم أن يكون لي كتاب يدخل كل بيت، لكنني لم أستطع ذلك فلم تستمل كتاباتي إعجاب الناس كثيراً، لكن دار النشر حققت لي شهرة هائلة في العالم وأصبحت داري أهم دور النشر، يتمنى النشر بها كبار المفكرين، إضافة الى المال حيث أصبحت أعد من المليونيرية. امتلكتُ عقارات في بلدان عديدة. اشتريت عقارات لدولة إجنبية قوية، اشتريتها لهم في وطني بكل برودة أعصاب طمعا بالمال.

اقتربت من الأقوياء كما أوصتني أمي قائلة:

لا تسر يا بني مع الضعيف لأنه يعديك ضعفا، بل سر مع القوي تستقوي به..

فسّرت وصية أمي كما يحلو لي، ولم أفسر القوة على انها القيم العليا، وهي السوية التي تجعل الانسان قويا بالحق ولا يخشى شيئا، وقلبت معناها رأسا على عقب. لم أضع في الحسبان خوف أمي علي وأنا وحيدها الذي لم يكن لديه أخوة يساندونه فكانت هذه الوصية هي أول ناب غرس في نفسي لأكون ذئبا مليئاً بالأنياب والمخالب الحادة البارزة في كل مكان من جسمي.

آه مما فعلت، فبماذا أعترف بهذا الكتاب لأ نجو ؟...

ها أنا الآن أجلس تعباً على الأرض المتحركة تحت أقدامي، إنها تجذبني الى الأسفل، صرخت، وكأن يداً امتدت لتسحبني من الطين والوحل الذي بلغ حد أكتافي حيث غصت به. تحركتُ ببطء وكإنسان آلي صوب بركة صغيرة كأنها نبتت للتو، إذ لم أرها سابقا، هكذا طلعت فجأة مثل

نبتة في صــحراء قاحلة، اغتســلت بها وشــربت منها رغم رائحة الماء الكبريتي.

دنوت من حجر فجلست عليه. حسنا فعلت إذ نقلت دفتري هذا مع القلم من جيبي الداخلي الى علبة حلوى معدنية وجدتها في القبو وعلقتها برقبتي، وحينما كنت مع محمود غلفتها بكيس وجدته في القبو وكان من النايلون القوي لذا لم يتلف.

مســحت كل شــيء، ولكنني بلا ملابس، كانت القطعة الوحيدة التي تغطي جسدي وعورتي قد ذهبت مع الحفرة.

الآن أنا رجل النهاية العارية.

ابتســمت لهذا الوصــف وهذه الجملة المضــحكة، إنها المرة الأولى التي أبتسم بها بعد الكارثة ..

فتحت الدفتر لأكمل به اعترافاتي، لكن دوارا ألمّ بي وشــعرت كأنني أغفو، ثم أهوي الى الأسفل، لولا أن جاءني صوت أمي من بعيد..

أصختُ السمع جيدا.

نعم هو صــوتها الحبيب، يقترب أكثر فيمنحني القدرة على الانتباه، مع أنني لا أســتطيع فتح عينيّ من شــدة الدوار، لكن عقلي منتبه للصــوت جيدا، التقط كل حرف منه وأتذكر مقطع القصــيدة التي حفظتها منذ طفولتي :

ولو هَجَمَتْ على قلبي البلايا

وهدّتْ سورَ آمالي الرزايا

فانّ بابِ فردوسي ملاكاً

يسلُّ السيفَ في وجهِ المنايا

ويحرسني، وذلكَ طيفُ أمي.

إنه صـــوت أمي يكمل الحكاية، تعود أمي لعلي الفقير وصـــديقه الأمير فتقول:

في كل يوم وفي كل وقت قبل زفاف الأمير، يفكر علي بكيفية حماية صديقه الأمير وذلك بتنفيذ المهمة الخطرة التي لايستطيع الكشف عنها، كان يتهيأ، ويقلّب الأفكار ليل نهار الى حد الجزع أحيانا والتفكير بالانتحار .

كان متكدرا، مهموما، يحاول الأمير أن يفهم مابه، لكنه أطبق فمه على الصمت والدمعة تفر من بين عينيه بين الفينة والأخرى.

لم يكن علي ليبتسم قط مهما حاول الأمير أن يسرّي عنه.

كان الأمير مثقفا نبيلا، حيث جلب له الملك منذ طفولته خيرة المدرسين والمؤدبين باللغة، والمنطق، والفلســفة، والتأريخ، وعلم الاجتماع، والدين، فتراه يخاطب علي ملتاعاً قائلاً:

يا علي يا صديقي

الناس لا ترى عيوبها أبدا، لو رأى كل شخص عيبه، لما حصلت المشاكل والحروب بين البشـــر ولكانـت مفردة كلمـة الكراهيـة غير موجودة في

قاموس اللغات جميعها، ولكن هكذا هم البشـــر، كلٌّ يرى خطأ الآخر ويحكم عليه دون الرجوع لحقيقته، لهذا اخترتك أنا، لتكون مرآة لي وتريني أخطائي. إنني أدرك ياعلي أنني مهما فعلت لن أمحو غلطة تلبستني رغم براءتي منها، وهو أنني ابن ملك، ولَم أغير بها شيئا، وأعلم أنني أحقق كل ما أريده بتأشـــيرة واحدة من إصـــبعي، وهناك ملايين الجياع تملأ الطرقات والبيوت.

أتعرف ياعلي من هو الحر ومن هو العبد؟ قال الأمير هذا ناظراً الى عيني علي الصامت منتظرا منه اجابة على سؤاله.

أجبني ياعلي إن كنت تعرف حقيقة الأمر، لأنه اختلط على الناس معرفته وماعادوا يدركون الحقيقة فظلوا بزهوهم حالمين.

أتعرف من هو المنصف؟

يبقى علي بصمته فيسترسل الأمير :

يا علي إن الزاهد وحده يصل مرحلة الانصاف مع الناس، الزاهد ليس عبدا لشيء، والزاهد وحده ينمو بداخله ضمير ويكبر ..

نظر علي إلى الأمير بكل حزن روحه، ثم أدار بوجهه دون أن ينطق بكلمة فوجعه كان أثقل من السماح له بالكلام.

خمّن الأمير الجواب قائلا:

ليس من يعمل عند ســـيد هو العبد يا صـــديقي، أبدا، فهو حر بفكره، وعينيه، وقلبه، وحر بعدم تحمل المسؤولية إزاء آخرين وهذا الأهم.

الشعب يا علي هم الجموع التي تشكل الملايين، فأي عبودية هذه عندما تكون مسؤولا عنهم جميعا ؟

الحر هو من تحرر من كل هذه المسـؤوليات وبقي يعمل على قدر ما يحتاج، وينام بلا تفكير بما يرتبط بعمله غداً، فقد عمل ليومه، واكتسب رزقه على قدر قوته ونام ليأتي صباح آخر وقد لا يأتي، إذ لا أحد يعرف متى سيموت.

لقد ضيع الناس الفرق بين الطمع والطموح ياعلي، كما ضيعوا الفرق بين الحرية والانحلال.

الحرية ياصـديقي لا تكون مع المال والسـلطة أو الشـهرة، والحرية أن تتحرر من هذه كلها، تحرر من الخوف على كل هذه المطامع، بل أن تتحرر من كل هوى، لذا كلنا عبيد، وها هو حبي لك يسـتعبدني إذ أتعذب من أجلك، لكن مايشـفع لي هو أن هدفي الوفاء وبلوغ العدالة فقط .

الحرية يا صـديقي تلك التي تجعلك ربما تسـتطيع الطيران بلا شـعور بالذنب أو الخوف، والطيران سمو ياعلي..

كان علي رغم حزنه يسـتمع لأفكار الأمير ويعجب أن يكون هذا الكلام لأمير عاش مدللا طوال عمره ولَم يعرف معنى الجوع أو الحاجة، ولا يعرف سبيلا الى الحياة الا من خلال القصر، والخدم، والعبيد، والسيادة عليهم..

ثم يضيف الأمير بتنهيدة تقلع القلب:

أعرف ياعلي أشـياء ربما لم يسـنح لي الوقت مصـارحتك بها بعد، وأؤمن بفلسفة مختلفة عما تعتقدون، فلسفة جعلتني لم أختر ابن ملك كصديق لي، فهو حتما سـيعمق أخطائي ويزينها لي إن سـموت عنها، وهي حقيقة لعمري موجعة ياعلي.

ثم يقترب من علي بحنو ويتوسله قائلاً :

علي، أرجوك، عد كما كنت.

ياعلي حتى إن كنت ً قد هشّمتَ الحصان غيرة مني، فهي غيرة قد تكون مشـروعة، فأنا أحلّلها لك وأسـامحك، لأنه من الخطأ أن أمتلك مالا يستطيع الآخرون امتلاك أصغر حجرة كريمة كانت تزين رأسه..

آه ياعلي، ربما تتفاجأ بحقيقة لم أقلها لك، هو أنك أسـعد مني أنا الأمير وابن الملك الذي تنحني له الجباه العالية، وتقبل يديه الأفواه، وتتمتم له بالشكر والدعاء، الدعاء الذي أومن بعدم صدقه.

أنت يا علي طبيعي كما أنجبتك الأرض والسـماء، أما أنا فمصـنوع مزيّف مبالغ بصنعه. أنا ياصديقي مرصّع بما ليس من أصله ولا يشبهه كإنسان، فكل ماتراه من قصـر وزينة وأموال، ليس من طبيعة البشـر وأصـالة وجودهم على الأرض، وهم بالحقيقة لا يمتلكون هذا مطلقا، بل هو نوع من الفخر والتباهي والعلو على بني البشر، ومحاولة للتميز عنهم وبالتالي غرس الغيرة والكراهية فيما بينهم....

لاتعجب من كلامي ياعلي، لو كنت أنا الملك لوزعت كل أملاكي على الجماهير وتركت القصـور والمجوهرات، ومنحت كل فقير منزلا متواضـعا

وقطعة أرض يعتاش منها، فهذه هي الحياة الطبيعية لبني البشـــر وماعدا ذلك كله هراء.

إنظر ياعلي، مانفع كل العلوم حينما يوجد فقير لايستطيع شراء العلاج؟ ومانفعها حينما يكون العالم منقسما الى فقراء وأغنياء؟

مامعنى الشعور بالسعادة يا علي؟

ربما اعتقد الناس أن ابن الملك أسعد البشر، في حين انه أكثرهم تعاسة وبعدا عن الفرح، بل أكثرهم قربا من الحزن وبعدا عن قلوب الناس مهما كانت صادقة وحقيقية.

الاختلاف بين البشـــر يؤدي بهم الى الغيرة ياعلي، والغيرة دافع خطير نحو الجريمة، كل شـيء يفعله البشـر وكان به تنافس فيما بينهم، يغذي الغيرة ويؤســس للحقد، والعداوات، والتآمر، فكيف حينما يكون الفارق هو امتلاك البلد بأسرها، وحكمها، وكل مالها في آن واحد .؟

ليتهم يأخذون مني كل هذا وأكون شابا بسيطا لاتسلط عليه الأعين كأبن حطاب أو عامل بسيط لأكون كبقية الشباب، حرا، أصادقهم بلا خوف، ولا حساب لشيء مجهول..

صـار الأمير يأتي بكلمات وأفكار متتابعة، وأحيانا متناقضـة، محاولا جر علي اليه، وجذبه من العالم الخفي الذي يأخذه من الأمير ويحيّره بكيفية إعادة صديقه الى طبيعته قبل حادثة الحصان الذهبي..

لكن علي يصـــمت، ويحتار أكثر، فها هو يكتشـــف بأن الأمير كان يخبئ عنه حتى أفكاره وهو الذي كان صـفحة بيضـاء مفتوحة للأمير، ثم يعود لهمّه المتفرد، إذ يتأكد بأنه لا يمكن لأحد بين الناس ولا حتى الأمير، برغم كل مايملك من محبة وتواضـــع، وإنســـانية، ووعي، وثقافة، أن يعقل ماهي أسـبابه، وما الذي دفعه لتحطيم الحصـان، وأن دافعه بعيد كل البعد عما يفكر أحسن واحد في القصر أو البلاد..

ويردد في سرّه:

يا الله كيف يفهم الأمير بأن مافعلته وما أفعله هو الوفاء ولا غير الوفاء؟

ألهذا كانت أميّ تقول لي يا علي لا تتهم أحدا، ولا تلومن أحداً على ما يفعل، لأنك لاتعرف حقيقة نواياه، بل جمّل للناس أفعالهم، فلعلهم يرتاحون لأنفسهم في الصورة التي توقعتها ورسمتها لهم، فيتراجعوا عن صورتهم البشعة وأفعالهم السيئة الأولى فيستقيموا....

يجلس علي مع نفسه متحسرا ويتمتم:

لقد صار الناس يرونني شيطانا بعد حادثة الحصان، نسوا كل شيء طيب فعلته يوما ما بحياتي وأنكروا روحي التي تتعذب بنظراتهم الحاقدة، وأسلوبهم الساخر من كل حركة أو فعل أقوم به بعد ذلك الحادث، نسوا علي الطيب الفقير المحب لهم والذي لم يؤذ أحدا بحياته والذي كان يمد يد المساعدة بكل مايستطيع فعله لهم...

بقي الأمير مهموما لحزن علي وهمّه الغامض، يريد بكل الوسائل إخراجه من هذا الصـــمت والدموع، فأتى له بالراقصـات، والمعازف، والمغنيات

علّه يتسـلى، جلب له أكثر الشـخصـيات إضـحاكا وعمل له الحفلات المبهجة، لكن دون جدوى فعلي لم يبتهج، واسـتمر على صـمته وذهوله وانغلاق روحه التي أعتَمت.

احتار الأمير ماذا يفعل، أحضـر له كل مايسـر النفس، حتى القردة البهلوانية المدربة على أفعال فكاهية جلبها له في القصـر ليبتهج، لكنه بقي بحدود صمته المطبق وسر حزنه الخفي.

الجميع كان يضحك عدا علي، فالكارثة التي يعرف أنها ستقع تقبض على روحه، ولَم تترك له بصـيص أمل واحد بالخلاص من براثن الموت بعد الفضيحة الكبيرة المخجلة التي سيفعلها أمام عيني الأمير.

كان الأمير يضحك مجاملة لعلي، وكان بين الفينة والأخرى ينظر صوبه عساه يرى ابتسامة يفتر بها ثغره.

لم يهتم علي لأحد بقدر اهتمامه بمشـاعر الأمير، صـديقه الوفي الذي سامحه على أمر لايمكن التسامح به.

كان يتمنى أن تكون الحمامة قد طلبت منه التضـحية بروحه بدل هذه الفضـائح، فحياته لم تكن غالية عنده أمام الخراب الذي يتوقع حدوثه بينه وبين صـديق العمر، ولماذا كان على الفقراء إثبات وفائهم بهذه الطريقة القاتلة ؟..

الامتحان هو الامتحان . ولا يعرف المرء ماسيأتي به.

يقترب صوت أمي من أذني أكثر. أشعر بهواء منعش يمس وجهي، ويمنح روحي رطوبة وطراوة أراحتني. هل أن صوت أمّي يأتيني همسا، أم أنني أضعف ويأخذني الدوار فيخفت صوتها في شعوري وخيالي ؟

آه يا أمي قصتك هذه تقتلني رغم أن صوتك يحييني، فوفاء علي للأمير، يجعلني أموت ندماً وحزنا عليك، إذ جحدت تربيتك، نسيت أنك علمتني الكثير، ظلمتك، واتبعت خطى الشر، آه، من أين لي بك الآن يا أمي ؟

ها أنا أجلس ولا أدري أي شيء سوى أنني مازلت أستطيع إلتقاط كلمات أمي والاستماع لحكايتها بشوق، وها هو صوتها يعلو بأذني وكأنها مدتني بقدرة جديدة كفيلة لأسمعها جيدا تقول :

كان علي موقنا بالأقدار، وموقنا بأن كل شيء مقدّر على المرء ولا يستطيع تغييره.

لم يفكر أبداً بأن مصدر صوت الحمامة ربما هو من إنسان يكرهه، أو يغار من حضوته عند الأمير، ويريد أن يبعده عن الأمير وعن القصر ليحتل مكانه.

كان علي يؤمن بهتافات السماء، وكانت أحلامه كلها تصدق، وكم كان يستجيب لها، بل كان يعتقد أن الإيمان بالحلم هو نوع من الإيمان بالله والحق، لأن الحلم من الغيب فيتذكر أحلاما رآها بحياته، كانت تتحقق له بالواقع ويندم لأنه أهملها بالحلم.

هكذا تربى علي، تربى على الرضا، والقناعة، والقبول بالقدر، تربى على المحبة والتضحيات، ولَم يفترض الشر أبدا، بل كان يؤمن بالخير كثيرا

ويقول إن الخير يهزم الشر دائما، وإن واجهت الشر بالخير سينهزم الشر بعيدا..

بهذا التفكير السـهل الممتنع، أحيط علي بهالة طاقة إيجابية جذبت اليه الأمير ليختاره صديق عمره دون بقية شباب البلد..

الآن رأس علي مليء بفكرة واحدة لاغير وهي أن يوم موته قد اقترب. أيقن علي تماما بأن فعلته الأخيرة التي عليه القيام بها يوم الزفاف سـتؤدي به الى الهلاك، لأن من المسـتحيل قبولها، لا الملك يقبلها، ولا الحرس، ولا الحاشـية، ولا حتى الشـعب الذي يود الآن وقبل فعل أي شـيء آخر أن يقطّعه أوصالاً فهو لم ينس له تهشيم الحصان الذهبي، فكيف به وهو يسبق الأمير الى عروسه ويقصّ ضفائرها ؟

كل ساعة تمر بعلي كانت موتا، وتصورا لفضائع ستحصل له، حتى رأى بأم عينه أصـفادا تقبض على معصـميه، سـمع دقات قلبه المرتعب حين سـيركض صـوب غرفة العروس، سـمع دقات قلب الأمير ووجهه المسـود لخيبته الكبرى بعلي، سـمع حزن الأمير عليه بعد الإمسـاك به وتناول الرعاع رأسـه بين أيديهم، سـمع هلع الأمير من غضـب الملك والنَّاس جميعا وماذا سيحل بصديقه، حتى أنه سمع صوت ارتطام أحجار الرعاع برأسـه، . لقد سـمع كل الكلام المقذع، والشـتائم البذيئة عليه، سـمع اللعنات والشتائم على أمه وأبيه، سمع انتهاكهم لروحه المعذبة، فصرخ وانهار باكيا.

بكى. بكى علي كثيرا خلال الأيام التي سبقت ذلك اليوم المشؤوم.

أسمع صوت اميّ ينخفض ويتهدج، بل إنه يبكي..

هل تبكي أمي على بكاء علي في القصة أم تبكي عليَّ أنا وما أعانيه الآن أو ماينتظرني ؟

آه يا أمي، أتذكرك بكل طفولتك وحركاتك التلقائية، كيف نسيت كل هذا ونسيت أنك كنت تتابعين معي كل حكايات الأطفال في التلفزيون وأفلام كارتون، وكنت تناقشيني بها، وتسألينني عن توقعاتي ماذا سيحصل بالحلقة القادمة، كنت تحفظين شارات المسلسلات الكارتونية، وحين تضعينني في الحمام لأستحم كنت تغنيها لي.

كل هذا نسيته، وكنت أمتدح زوجتي وأذمك أمامها بكل وقاحة لأرضيها، بل أنسى كل جميل لك يا أمي، ولَم تعاتبيني بعد أن أصبح عتابا واحدا منك يؤدي الى قطيعة سنوات معنا إلى أن بلغت حقارتي أنني قاطعتك حتى الموت.

كيف صرت هكذا ؟ وكيف كبر الشر بروحي حتى وصل الى أمي، وكيف غسلت زوجتي دماغي ؟ لا أعرف.

ينقطع الآن صوت أمي مع أنني أتحرق لهفة لإكمال الحكاية ولأنتعش بصوتها وروحها..

لأكمل اعترافي هنا حتى عودة الصوت مع غذاء الروح الذي يبقيني حيّاً..

.....

أنا سالم باقي يحيى

لســـت أحســـن منكم بل أنا كنت حقيرا وواحدا ممن ســـاهم بالخراب، فالصدق كان أول ضحايا الحياة على هذه الأرض.

عذرتم صـراحتي أو لم تعذروا، فسـيَان عندي، طالما أنني أتطهر باعترافي الآن من كل ذنوبي، قبل وبعد الكارثة .

ســـأفجعكم بحقيقـة أفعـالي التي لم أعـاقـب عليهـا تحت ظل قوانينكم وعاداتكم وحتى شرائعكم التي اعتمدتموها.

لأدون هنـا ما ارتكبتـه من جرائم بحيـاتي، وأعترف بكل قواي العقليـة، أمام الخرائب كلها، وتحت السماء، وأمام الأحجار المتكدرة، المتكدسة على بعضـــها، وأمام كل الزواحف المنتشـــرة بالحفر والجحور الآن وبعد خراب الأرض بأنني كنت حقيرا حينما عملت بمحطة القطار، وكنت شـاباً أعزب، تخرج من معهد الســـكك، وقبل أن أدرس لأصـــبح بعد ذلك مدرساً..

كانت المحطة بمدينتنا الصـغيرة تبعد عن المدينة مسـافة السـاعة سـيراً على الأقدام، ولا مواصلات عامة في مدينتنا الصغيرة ذلك الوقت.

أتذكر كل شيء جيدا ولن أنساه ماحييت.

كنت أبحث عن فريســة أفري بها حملي الشــاق من الشــهوة وأســتريح، أتحين الفرص لأعبث مع امرأة.

كنَّ خمس نساء ريفيات، يأتين من قرية صغيرة قريبة يمر بها القطار، ينزلن من قطار الليل الذاهب الى العاصمة، مرورا بمدن أخرى منها مدينتنا، مرتديات عباءاتهن الحريرية، حاملات على رؤوسهن طوابق الصواني المليئة بصحون القشطة واللبن، يصل قطارهن الساعة الحادية عشرة والنصف، ينزلن بالمحطة، واضعات قدورهن بحانبهن، يلتففن بعباآتهن، منزويات بركن قصي من أركان المحطة المتواضعة، لكنها - على أي حال- حائط ومكان آمن، وبلاط يتمددن عليه ملتصقات ببعض، أربعة منهن كبيرات بالسن وواحدة فقط في ريعان الصبا.

بداية كنت أستقذر عملهن، باعتباري موظف محترم، وناظر محطة، وأكون بالليل وحدي في الدوام الرسمي.

كنّا ثلاثة موظفين، كل موظف يعمل ثمان ساعات، أكبرنا وهو المتزوج منّا وصاحب عائلة، يعمل بوقت ثابت من الثامنة صباحا حتى الرابعة عصرا وأتناوب أنا وزميلي نحن الأعزبان الأوقات من الرابعة عصرا حتى الحادية عشرة ليلا، ومن ذاك الوقت حتى الثامنة صباحا، كنّا نتبادل الأوقات فيما بيننا، فأسبوع أعمل أنا من الرابعة الى الحادية عشر ليلا وهو يعمل حتى الصباح، ونتبادل الوقت بالأسبوع الثاني وهكذا، نتعاون فيما بيننا باستمرار، فعملنا لا يقبل أي تأخير، والقطارات تستمر بالعبور صباح مساء، ثم أننا نقوم بكل مايحتاجه المسافر من بيع تذاكر، وضبط حركة وصول وانطلاق القطارات، والتصفير لحظة الانطلاق، والعمل على جهاز شفرة بين المحطات لتنظيم سير القطارات...

الملل عدو، وربما هو شئ من الوجع الخفي الذي لانعرف سببه.

فبالرغم من كل هذه الأعمال يشعر أحدنا أن الليل طويل ولا ينتهي..

انتبهت في إحدى الليالي لتلك النسوة، بل لأصغر واحدة منهن وكانت شابة تعج بالحياة وبريق الجمال السومري. كانت تبرق رغم العباءة السوداء، تزين وجهها بوشم على حنكها، يأخذ شكل نجمة وكم كان منسجما مع بريق بشرتها الحنطي.

الوشم عادة سومرية قديمة جدا، لم تنتشر في أوروبا إلا في نهاية القرن العشرين. كانت تتدلى من أنف الشابة وردة ذهبية بها حبّة لازوردية، وهذه أيضا زينة سومرية قديمة، عمرها آلاف الأعوام، عرفتها أوروبا قبل عقدين ربما أو أكثر قليلا.

ذهب القطار الذي أتى بهنّ حاملا كلّ صريره وأوجاع ركابه، مع ثقل الحديد في عتمة الليل الساكن.

فرغت المحطة إلا منهن ومني، ولقد اعتدن المبيت بركن من أركان المحطة، إذ السير في الليل صعب عليهن وهن نساء يحملن أحمالهم، والمسافة بين المحطة والمدينة مليئة بالأشباح، والسكارى، والكلاب السائبة، والأشقياء، ثم أين يذهبن في الليل، لا سوق ولا مارّة، لا أحد يشتري منهن بذلك الوقت، فبضاعتهن يشتريها الناس صباحا، لهذا كان نومهن بالمحطة وانتظار الصباح للنزول الى المدينة هو الحل الأمثل، بل هو الحل الوحيد لديهن.

كانت أصغرهن هي قمرهن المنزوي بأبعد زاوية، تبدي من الحياء الكثير، وتخفي في لون وجنتيها اللذة والتوق للحياة.

لم تكن امرأة كما اعتاد البشـــر أن يروا، بل هي ثورة في عالم التكوين. برغم أنني لا أحب الوجوه البريئة، سحرني وجهها.

كان بريق عينيها صـارخا، طازجا، متحديا للناظر، وجمال قدها الأهيف الرشيق يسبي العقل.

لن أطيل الوصف، باختصار، كنت أرى بحضورها شيئا مبهما، ممزوجا بحلم، فتنة، وعبق لقاء.

لم أحترس من أي شـــيء، إذ قدحتني، بعد أن حدقت بوجهها عن قرب قبل أيام، همتُ بها فراقبت تحركاتهن، مكان منامهن، وكل مايحيط بتلك الساعات التي يقضينها وهن ملتفات بعباءاتهن ومتمددات بركن من المحطة.

ينغزني الملل، وتنغزني فحولتي، وينغزني الحرمان.

جمعت بفكري كل الاشتهاءات حين مررن جانبي، شممت عطر بخورهن المخلوط بطعم القشـــطة، خلطة غير معتادة، وشـــهوة امتزجت بها شهوتان، الغريزة ورائحة الحياة بطعم لذيذ دوخني..

ركزت على مكانها قبل أن تلتف وتغطي وجهها بالعباءة.

كان لونها يضـــفي على تلك الشـــهوة المركبة حلاوة أكثر، حلاوة تدفعني لأكون أشـــجع من عنترة بن شـــداد، أندفع بلا أدنى تفكير، لاغيا كل المخاوف من حولي، مفترضا أنهن جميعا قد غرقن في نوم عميق.

بعد أن مضـــى من الليل شـــيء، اقتربت منهن، كانت تنام وســـطهن بالضبط، حيث يلتصقن ببعضهن.

كيف أســتطيع الاقتراب منها وهي لاتبعد عن الأخريات ســوى مســافة قصيرة تكفي لمرور شخص حذر من خلالها ؟

إذاً، علي أن أكون دقيقا جدا، ماهراً في المســافات، ماهراً في الصــمت، وماهراً في تصــويب الهدف، وكان علي أن أكون دقيقا في معرفة خارطة جسدها وهي تلتف بالعباءة السوداء والعتمة تهجم على الدنيا، إذ اخترن زاوية لايغمرها ضــوء المحطة كثيرا، وكان علي أن أكون ماهرا في كتم أنفاســي وانفعالي الجنســي، وعلي أن أجمع بحذق كل خيالاتي لاختصــر الفترة الزمنية لإنهاء وجع الشهوة وأبلغ مرادي.

المحطة فارغة تماما إلا مني ومنهن، فالقطار المقبل لا يصــل إلا صــباحا في الســاعة العاشــرة، حيث يكنَّ قد عدن من الســوق وبعن ماعندهن ليذهبن مع قطار العاشرة الى قريتهن.

ســتكون اســتفاقتهن في الخامســة فجرا لينزلن الى المدينة، لذا علي أن أقضــي وطري منها بالفترة ما بين الســاعة الثانية حتى ماقبل الخامســة، فبهذا الوقت أضــمن بأنهن غططن في نوم عميق، ولا شــيء بهذا الوقت يقترب من المحطة إذ لا هدف من المجيء لمحطة نائية ليس فيها غيري، أما زميلي الذي سـيفتح المكتب لقطع تذاكر قطار الصـباح، سـيأتي بعد انتهاء دوامي في الساعة الثامنة.

اقتربت منها، وبحذر شديد وضعت يدي على فخذها لكنها لم تتحرك.

مررت يدي برفق صعودا الى بطنها بجرأة، غير خائف من ثورتها وإحداث فضيحة لي في هذا الوقت، لم تتحرك.

صـعدت الى الأعلى، وبلذة هائلة أنعظتني ولَم تتحرك. تلمسـت بطنها، شـعرت بمهبط سـرتها فأدخلت إصـبعي به، وكالحلم ضـعت، تسـارعت أنفاسها قليلا ولم تستيقظ، أو أنها تمثل النوم.

لم أصدق أنها نائمة.

تشجعت وصعدت بيدي من وراء العباءة الى صدرها، لم أر أي رد فعل.

أمسـكت بصـدرها العاصـي الذي حرك جنوني، ضـغطت عليه بكامل كفي، لا حراك منها سـوى أنني أحسـست بتنهيدة مكتومة جدا، عصـرته أقوى، أحســـت بتقلص جســـدها. تجرأت أكثر ورفعت عن وجهها العباءة، ظلت هي تعطيني شـعور النائمة بسـخاء مشـجّع، ولم تفتح عينيها.

خلعت عنها العباءة بإثارة من لَم يعد يحتمل، وضعت يدي على خدها.

لم تفعل سوى النوم.

ألصقت شفاهي بشفاهها، شممت رائحة المسك.

كانت **تجهد** بالصـمت لتمنحني الاطمئنان مما يزيدني شـوقا وشـعورا بالرجولة. كانت كالنائمة حقاً، كالضعيفة، كالفريسة.

هكذا نحن نحب ألفرائس الضـعيفة التي تتكور بين أيدينا وتتوسـل أمام قوتنا، توسل الجسد الفاغر فاه لشيء نطعمه له فننهي ثورته.

فتحتُ لها أزرار ثوبها، وكما حرصـــت هي على الاســـتمرار بهيئة النائمة، حرصـت وأنا بكامل جنون جسـدي على عدم إيقاظ رفيقاتها، جردتها من ثوبها بهدوء ومتعة.

بات القمر عاريا بين يدي.

أقبلت على ذاك الجسد اللامع بكل شعاع الجمال المستور..

كل هذا الجسد الآن لي، بين يدي، أنا الذي أحلم باظفر امرأة.

الآن كل هذا البهاء لي وحدي، وفي هذا الليل الساكن والنائي عن البشر.

كل هذا التكور، والخصـر الضـامر، وفنجان السـرّة المزموم، بات نظري قويا أكثر، صـار حديدا، صـرت التقط ضـوء النجوم وأشـعة المصـابيح البعيدة في تلك العتمة لأرى سرتها، كانت سرّتها محاطة بوشم كالورود، يا الله أعنّي على تحمل كل هذا، فحديث الجســـد ليس كحديث الروح. لثمت كل مسـامة في جسـدها، وبسـرعة هائلة، كنت أشـعر أنها فرصـتي الوحيدة وسأموت بعدها.

كيف لم تستفق أحدهن، لا أعلم. لهاثي كان يشـق الليل ويهتك سـتره، لكنها مازالت تمثل دور النائمة، ترى هل هي نائمة حقا؟

سكونها هذا وعدم إتيانها بأية حركة، يدفعني الى الأمام ، يثيرني، يشـعل شـهوتي، يصـرخ بي أن أدخل، إنها جاريتك المخلصـة المسـتسـلمة، أميرتك النائمة

أمامي الآن جسد ينث أنوثة، ويضج بالصراخ واللهاث بلا صوت، بل بسكون سماوي نبيل، جسد يبكي في العتمة، جائع، عطش، يريد رواءً، فما يكون مني غير الجنون دونما ألوي على الليل، والغد، ونواميس الكون، حتى دخلتها... بدأت بطنها تتقلص، تلتهمني الى العمق، أنفاسها بدأت تتسارع أكثر، ورغبتها تشتد لتمتص رحيقي السفلي، العلوي، الوسطي، تمتصني كلي، ومن خلال مساماتها المتأهبة للشرب والارتواء.

أي عطش هذا، وأي وجع، وأي خوف، يجعلها تحرص كي لاتصدر منها نأمة، أو تند منها لمسة لطرف إصبع قدمي.

كانت مستسلمة كما أراها، داخلها مرجل يشتعل، يشتهي، يتأوه بلا صوت، يصرخ، ينشج، يتلاعب باللذة، يقبض عليها، يتوجع، لا تريد أن تفلت اللذة منها، وأنا أدخلها بكل قوتي، لذة ورغبة ممنوعة علي، لطالما حلمتُ بها، رغبة أمسكها الآن بكل روحي وجسدي ولا أريد أن أتركها حتى ولو قُتلت بها.

أهرقت بجوفها حريقي وكل مايعذبني فسكن وجعي. انتبهت لاقتراب الوقت ومامسموح لي. نظرت لتلك النسوة النائمات، فعدت للوعي وعجبت كيف اخترقت كل شيء، أعدت ثوبها وغطيتها بالعباءة، ولملمت أشلائي المضعضعة، قبّلتها بقوة وامتنان ومصصت شفتيها دون أن تند منها آهة رغم شعوري بشبقها، وضجيج جسدها المكتوم، وابتلاع ريقها المخنوق بالشهوة .

أعدت كل شيء كما كان، كل شيء الى مكانه، حتى أنني مسحت مكان الجريمة من جسدها ونشفته بمناديل ورقية كانت في جيبي.

بعد ذلك كل شـــيء عاد كما كان عدا الزلزلة التي هزت روحي وجســـدي، وبحذر وتؤدة صـعبة على جسـدي، نهضـت ومضـيت الى الحمام ثم الى مكتبي..

لم أكن بحالة طبيعية بعد أن ذقت العسل من قارورة رائعة، كلها بخور، ورائحة مسك، ونعومة، واستسلام...

استسلام، نعم هذه هي الكلمة التي شبقتني أكثر، لقد وجدتها ..

إستسلام.

كانت مســتســلمة لكل شــيء- كما شــعرت- خاضــعة لشــهوتي القاتلة، للمصير، لليل، للقدر، للآتي، لما يحصل، كأنها راضية حتى بالموت.

اللعنة علي، إنني لم أشبع منها بعد.

حاولت أن أشغل نفسي بقراءة الصحيفة الملقاة على الطاولة والتي يتركها لي زميلي المداوم قبلي بعد أن يكون قد قرأها.

الغريب أنني لم أفهم من الجريدة شـيئا فلم أعد أملك تركيزاً يؤهلني لفهم ما أقرأ.

رميت الجريدة جانبا، صـرت أحرق السـكائر بلا عد، ولكن دون جدوى، فهناك أفعى بداخلي تزين لي المضي الى حيث الشهوة.

نظرت الى ســاعتي، مرت ســاعة على فراق ذلك الجســد، اشــتهيته مرة أخرى، اشتقته باحتراق.

هل أذهب اليها الآن وما زال لدي من الوقت بعد، أم أترك ذلك للغد؟

هل ستنتبه غدا وتتوقف عن المجيء وتحرمني منها؟

هل ستفضحني عند عودة الصباح والشمس وقوة الحقيقة أمام الناس؟

ضــربت أخماســا بأســداس لكن الخوف من فقدان اللذة تغلب علي آخر المطاف، فحملت جسدي الثائر، المتجبر، وذهبت اليها مرة آخرى..

ذهبت الى الملاك الذي احتضن حرماني، وصمتَ على جنون فحولتي .

وكالمرة الســابقة، وضــعت يدي على فخذها، لم تتحرك، إنه النوم ذاته، إنه القبول غير المعلن فاختصــرت هذه المرة الطريق نحو اللذة. رفعتُ عباءتها وهجمت على فمها، امتصــصــت رحيقها وغرقت برائحة البخور، لعقت أذنيها، وكما في المرة السابقة، تبقى نائمة..

كان نومها رضــاً، وغطاءً، وحناناً، وإثارةً لا تنضــب، دخت بها ففتحت ثوبها سريعا، لعقت فنجان سرّتها وأدخلت لساني .

رغبات لا تحصى، بجسد لا يحصى إنوثة وجمالاً.

كيف لي بعد ذلك تجميع شتاتي المبعثرة بين مساماتها الألِقة؟

لم أحتمل كل هذه الجنة، فجئتها بعنف أشد هذه المرة، فلتَتْ منها آهة ســجينة، لكنها أخرســتها بســرعة البرق لتعود أنفاســها كما النائمة رغم ارتباكها المفضوح.

لم أشـأ أن أنهي لذتي بسـرعة هذه المرة، بل أريد البقاء معها أكثر، أريد نسيان الزمن، أريد الالتصاق بها حتى الموت، أريد أن يبقى كلّي بكلّها.

آه.. أريد المزيد الذي افتقدته، اللذة التي جهلتها.

ما كنت أدري أن الاستسلام يحدث كل هذا بالرجل.

لم أشأ أن أتوقف، كانت هي تحتويني بلا حراك، تلبي طلباتي بسكون، تجيبني بصمت، حذرة من تنبيهي الى شيء اسمه اليقظة.

كانت تنام وتمنحني الشعور بأن البشرية لا تعرف معنى اليقظة أبدا، كأن أحدا لم يسـتقيظ في التأريخ، كأن العالم ولد نائما هكذا، وتزاوج، وتكاثر، وتمتع بكل الشهوات، فأطمئن وأوغل باللذة.

كم كانت كريمة ورائعة، منحتني الوقت لأن أوزع الرغبات على جسـدها وألعب به ما أشاء.

جعلتني سيدا على أجمل جسد، وحارسا على لذاذات مساماتها، وهبتني كل شيء بلا مقابل، وبلا كلمة، وبلا تحميلي شعوراً بالمسؤولية..

كانت مشاعية الروح، ذائبة بين يدي كالزبدة المحلاّة بالعسل.

لم يكن هذا جنسا كما يعرفه البشر، فقد التهمتها ألف مرة بمرة واحدة، ارتويت ألف ارتواء بكل لحظة وحركة وكنت أنا المتحرك الوحيد بالفعل هذا، وحدي طالب المتعة بصراحة، وهي المتلقية التي وهبتها الدنيا لي لتسقي عطشي وجفافي.

كانت فحولتي السـادية المجنونة وحرماني يحفزانني لأوجعها، فأقضـم حلمة صـدرها بقوة وأعرف أنها تتوجع وتصـمد، تصـمد تحت ضـربات جسـدي، لا يندّ منها سـوى تقلص بطنها بقوة، أو نفس عميق متخف موجوع، نفس شـارد لا يدري مايفعل في عتمة الليل وبهذا الهجوم المريب، الغريب، اللذيذ.

كانت تشعر معي أنها أقل مستوى مني كما اعتقدت، فكل ما أجئ به من تصـرف كان عندها محمودا وراقيا، هكذا كنت أحس منها دونما كلام، وربما كان هذا شعوري الأناني وحدي.

رسـمتُ لها إحسـاسـاً كيفما شـئت وأقنعت به نفسـي، فأخترته شـعورا بالدونية أمام فحولتي وكأنما هي مخلوقة من أجلي، من أجل راحتي، وشهوتي، فكلما أوغلت أعمق كان الاستسلام منها أكبر وألذ.

كم كنت مجرما إذ أسـقطت شـعوري المشـوه على أمرأة نائمة ليمنحني السلطنة والتفرد.

كنت أنا المالك الوحيد لكل جسـدها المنحوت، الهائل، المنادي، المتوسـل، وهي لا تلوي على شـيء، فكلما زيّفت نومها أكثر، زادتني شبقاً وجنونا.

آه. تمنيت لو يتوقف الزمن فأبقى معها هكذا والى الأبد.

لملمتُ جمالها النائم خوفا وهروبا من واقع لا طاقة لها بمواجهته .

أزلتُ بقاياي عن جسـدها، مسـحت عنها تهتكي بذاك الجسـد البريء، الغـامض، الضـائع بين مفهوم الطبيعـة التي أنجبتـه ومفهوم العنف الاجتماعي.

هل أزلت أثري عنها حقا؟

كنت متعاطفا مع جسـدها الشـهي، أنا الوضـيع الذي ارتكبت فعلاً يعد جريمة، واغتصبت منها لذة محايدة، وجسداً ليس من حقي.

كنت أحاور ذاتي، فمرة أحمّلها سبب كل ماحصل لها بقبولها المستكين وبهذا الصـمت والنوم المزيف، وأحيانا أتذكر فرحي ونشـوتي بامتلاكي هذا السـكوت المثير والعابق بالشـهوة فأحسـبني سـيدا من حقي اللعب بجاريتي متى أشاء.

ما أن أطلّت خيوط شـعاع الفجر، اختفت النسـوة من المحطة كأنهن لم يكن موجودات يوما، هكذا هن في كل يوم، حينما يذهبن لم يتركن أثراً أو دليلا على وجودهن، هكذا كنّ يأتين ويرحلن كالحلم يوميا، أو كأنهن يولدن كل يوم من جديد، يأتين يومياً كأول مرة الى المحطة، كنسـاء جديدات، وكأنما يذهبن في الفجر ولآخر مرة..

لقد توجهن الى السـوق لبيع ماجئن من أجله، وبقيت أنا بدهشـتي وارتباك جسـدي حتى السـاعة الثامنة حين جاء زميلي ليسـتلم مني المكتب .

قفلت عائدا الى منزلي. عدتُ، لكنني لم أعد كما كنت كل يوم..

لســـت أنا تلك الذات التي داومت العمل قبل اليوم، حيث كل أيام الأسبوع أعود لأستحم وأنام بعمق، وأعيش كما اعتدت .

لم أكن أنا هذه المرة كما أنا في المرات الســـابقات، إنما شـــخص غيري، شخص وجد نفسه - فجأة- سلطانا أو ملكا مستجاب المطالب، وفجأة أيضاً، خلعوه عن عرشه فهبط الى حضيض الحياة البسيطة.

عدت الى حياتي الرتيبة، فها هي ذي دراجتي القديمة التي أركبها كل يوم، وها أنا أدخلها زقاقنا العتيق.

أفتح باب بيتنا المتواضـــع الى الحد الذي لم يترك التواضـــع له أي لون. عجباً كيف أنني لم أنتبه الى لون بيتنا ؟

ماهو لون بيتنا حقاً ؟

اليوم رأيته على حقيقته، بلا لون، فهو ليس بنيا، ولا رماديا، ولا مغبرّا، إنما هو هكذا، مجرد من الألوان، بيت بلا لون، هيكل من طابوق أهلكه الزمن فأضاع لونه.

أنا باقي سالم يحيى

أعترف أنني كنت قد تعلمت الحياة، وصـــرت أرى الأشـــياء على حقيقتها أكثر، فالبارحة كنت شاهدا على ماتعلمه انكيدو من الفتاة التي فتحت له صـــدرها في البراري وعلمته الحياة لتهرب منه الذئاب بعد أن نام معها فصارت به رائحة البشر .

أنا سالم باقي يحيى

أنا الذي تفتح عقلي بعد أن تفتحت لي ألف عين رائية بكل مســـامة من مسامات جسمي.

(أنا الذي رأى كل شيء

فغنِّ بذكرهِ يا بلادي)*..

---

*مطلع ملحمة جلجامش ترجمة طه باقر .

ضحكت من نفسي حينما شعرت شعور جلجامش، قاتل الوحش، وباني أسوار أور العظيمة.

رددت ماقاله في ملحمته الباحثة عن الخلود، الملحمة التي ماشبعت من قراءتها أبداً، حيث ارتقت الى روح أجدادنا الأوائل، وموسيقى النايات مابين الرافدين..

صرتُ غيري، إذ أمتلكت السرّ، الحلم، الانتظار، الشهوة، التيه، أمتلكت الجديد الآتي، وكل هذه الهبات جاءتني مرة واحدة من إمرأة نائمة أو تدعي النوم ولا أعرف اسمها.

عرفت اليوم أن المرأة واهبة الحياة بكل المعاني، واهبة السكينة والسعادة..

صار لدي انتظار يدغدغني كلما نظرت لساعتي.

الآن لدي إمرأة لا أملك صحوها، لكنني أملك غفواتها وإن كانت كاذبة، أفرح بنومها ليستمر حلمي، وأتمنى دوام الخداع لأنتشي في الظلام المطبق على حياتي.

إمرأة تخاف وعيي وانبجاس خيوط النور في روحي وعيني، هكذا أرادتني جسدا بلا روح، هل ستبقى ياترى نائمة في المرات المقبلات، هل هناك مرات مقبلات وقوارير عسل أخرى؟

لماذا أرادت أن تبقيني على عماي؟ لم أعرف أي شيء عنها، لكنها بقدر ما كانت كريمة بجسدها، لم تمنحني من روحها ذرة.

.....

أنا سالم باقي يحيى

وحدي بين الخرائب، أشعر بالدوار والرغبة بالنوم، الصداع يعود ليطيل عذابي.

أينك يا أمي ؟

ها أنا صـــرت أعترف بكل جرائمي، وكل عبثي، وكل قباحاتي، لقد أيقظ صـــوتك وحكايتك روحي، روحي الهائمة وحدها الآن في عالم الضـــياع والعتمة والمجهول.

كم مرة أنقذتني يا أمي لأكمل اعترافاتي قبل أن أموت.

تغيب أمي لكنها تذكرني بروحي ســـاعة ارتكبت وقاحتي، فلأعد أكتب مافعلت وما أجرمت.

لا يا روحي المغفلة، علي أن اســتفيق وأقول الحقيقة، وأعترف بأن المرأة النائمة لم تكن لي أبدا، ليس لي منها مســامة واحدة، بل أن نومها أقفل كل قلاع روحها بوجهي.

كان ألف ســـيد يقف متجبرا، متســـلحاً على أبواب روحها، وكان الخوف ملكا على خياراتها.

حين أستفيق من جنون الشهوة، أرى الحقيقة.

ربما كان حراس روحها ينظرون إلي باحتقار، يتعاملون معي كشـــحاد جائع، أرادوا الإشـــفاق عليه فرموا اليه كســـرة خبز وباتوا ينظرون اليه باشمئزاز.

لم تعطني روحها أبدا.

الروح همسة في الأذن، وقلب يعشق.

الروح بريق عين، وفرحة لقاء مسموع.

الروح عناق وقبلات متبادلة تنضح بالرغبة.

الروح كلمة حب، ووعد، وأمل.

أين الحقيقة ياترى ؟

ماذا كان شـعورها وهي تمنحني تلك البهجة في عتمة الليل وعتمة حياتي الفقيرة ؟

هل أن الخوف كان سـيد الجسـد البض، وحارس العالم العلوي الذي أخفى عني لذة استمتاعها وحرمني من لهاثها المعلن، فكانت الشهوة أقل متعة مما اعتاد الناس.

هل أرضى أنا بأقل من شهوة كاملة روحا ً وجسداً ؟

أبدا

أريد الجسد والروح معا ولن أرضى بغير ذلك بديلاً.

لم يكن نومي هذه المرة عميقا، كنت أريد إقناع نفسـي بإجابة واحدة عما جعل المرأة التي دخلتها لمرتين تفتعل دور النائمة.

هل هي تخجل أن تواجهني بحقيقة رغبتها فأرادت الارتواء هكذا دون أن تريد الإفصاح عن الرغبة ؟

هل كانت خائفة مني ولا تعرف ماذا تفعل وأنا الرجل الوحيد بالمحطة لأن أي كلمة منها ستوقظ من معها وتحصل مشكلة، ولأنني ناظر المحطة الذي يحق له طردهن منها ؟

هل خافت على فقدان المكان الذي يأتين له منذ زمن ليرتزقن ببيع منتجاتهن من الألبان وهو عملهن الوحيد لسد الرمق ؟

هل هي معجبة بي وخافت أن ترفضني وأزعل فصمتت رغبة بإرضائي وعدم تحميلي المسؤولية ؟

هل خافت أن يفتضح أمرها لهذا افتعلت النوم لتكون بحلّ من الجريمة ؟ وإلا كيف لي تصديق أن امرأة يتم ممارسة الجنس معها وتبقى نائمة ؟

لا أحد يصدق ذلك، وإن قلته لأحد يعتبرني كاذبا، وربما يسخر من عقلي.

يومها كنت أحاول النوم ولَم أفلح، إضافة الى أن النوم بالنهار لا كالنوم بالليل، ولكن ما العمل ووظيفتي تلزمني بالنوم نهارا بين إسبوع وآخر.

كنت أتململ بالفراش، نهضت لأدخن، دخنت كثيرا من السكائر.

عرفت أمي أنني يقظ فاستعدت لتحضير طعامي.

كنت أشعر بنشوة وطاقة لم أعتدها. أخذت حمّاماً طويلا. نظرت لجسدي تحت الدوش، راقبت سير الماء في عضلاتي. تحممت جيدا أكثر من المعتاد. دللت مساماتي الطافحة بالرغبة. حلقت وعطرت جسدي كله. لمعت شعر رأسي فانتشيت وأحسست بشعور الملك.

عجيبة الشهوة عندما تكركر بحياتك وترويك !

تقلب موازينك، تريك جســدك كما لم تره من قبل، وتفتح لك كل مساماتك فترى أصغرها.

كنت أنظر الى وجهي في المرآة، كأنني أراه لأول مرة، أو أنني لم أره منذ قرون.

إنقلاب في كل شــيء، في نومي، في منظري، في شــعوري، في رغبتي بالكلام، حتى في شهيتي، فقد أكلت جيدا رغم انشغال فكري..

ليس من عادتي أن أقبل على الطعام حينما أكون مشــغول الفكر، لكن هذه المرة لا أدري مالذي جعلني ألتهم الطعام بشهية متوحشة.

بعد الغداء ذهبت الى المقهى، وكالعادة، قرأت الجرائد شــربت القهوة، والتقيت بالأصدقاء.

كان العالم في واد وأنا في واد آخر.

مازلت في دائرة الحدث الليلي. أنظر الى ساعتي واستعجلها ليأتي المساء وأذهب الى المحطة. كنت أتوق لرؤية ردة فعلها، معرفة أي شــيء يدلل على حياة هذه المرأة التي قلبت كياني بنومها المطبق.

يمر الوقت ثقيلا، بطيئا، جافا، لئيماً، بل إنه لا يريد أن يمر أبدا..

صــرت متأكداً أن الصــبر عادة لابشــرية أرادوا حشــوها في عقولنا عنوةً لنعتادَها ونُســلِّم، وإلا كيف نصــبر على ســير الزمن ونحن نحترق ونريد اختصاره ؟ ماذا علينا أن نفعل ؟

بقيت أقلب الأفكار وأسفسط بيني وبين نفسي لعلّ الوقت يمضي.

لقد اعتدت أن أشـغل نفسـي بالقراءة أو بتقليب صـحة أفكاري، وتقاليد المجتمع، والأحداث من حولنا، أو بالبحث عن أسباب ما اعتاده البشر، فهكذا يمضـي الوقت أسـرع، أما بعد تلك الليلة فلم ينفع مع ثقل الوقت أي شيء.

سألت نفسي لو أنها عذراء لتوجعت.

لكنني سـمعت يوما من صـديق طبيب بأن النسـاء لا يتشـابهن في هذا، وبأن العاشـقات اللواتي يقتلهن ذووهن دفاعا عن الشرف بعد حملهن لم يتوجعن أثناء الفعل مع الحبيب، فالحب أكبر مخدر للوجع، يمنحهن أعظم اسـترخاء فلا يتوجعن، والرغبة بالحبيب تربك قوانين الجسـد وتعطلها..

هل كان هذا دليل على قبولها؟ أم أنها كانت تتوجع بصـمت؟ ماذا أفعل؟ لقد دخلت اللذة عقلي، أسقطت كل أفكاري، وماعدت استطيع تجاهل بطء الزمن ..

خرجت من المقهى. سرت في شوارع المدينة. وجدتني قرب النهر، ولأول مرة أحدق في النهر بدقة، كأنني لم أر الماء بحياتي، ولم أعرف وداعته الرقراقة، لأول مرة أشـعر بنقائه، لم أكن أنظر اليه، بل كنت أشـربه بعينيّ فأرتوي، حتى تمنيت أن أكون ماء، تمنيت أن أكون موجة تعرف الى أين تمضي، قشة يحملها التيار الى مرفأ قريب، فراشة تقطع المسافة بين زهرتين..

تمنيت أن أكون أي شيء، أي مخلوق يعرف مصيره، إلا إنسانا ضائعا بين الأفكار والانتظار ..

رأيت النهر يسير بدعة ودلال..

كان الوقت بداية الصيف، والأعشاب تصعد بكل أبهتها والورود تتناوب بالألوان، بين الأحمر والأصفر ولون الورد الجهنمي، وكأن العراقيين رأوا جهنم وكان هذا وردها، فأسموه جهنميّاً.

ورد أراه يعرّش على أسيجة البيوت والأبواب، يلتهب بالشوق والشراسة، تاركاً اسمه يشعل الرائي، فمالي وجهنم، أنا الذي تعذبت بنار الجمال منذ البارحة.

جئت الى الشوارع والنهر طلبا للهدوء، لعلّني أنسى فورة الشبق بعروقي، ولعلني أحرق الساعات، ولكن لم يزدني وجودي هنا إلا هوسا بالليل واللقاء بها.

عدت الى المنزل. تعشيت. حضرت مع والدي عملا تلفزيونيا فكاهيا. شربنا الشاي. سألني والدي عن عملي فأجبته نفس أجابات كل يوم: لا جديد

سألتني أميّ مازحة وكالعادة متى تتزوج لأرى أطفالك ؟ لم أجبها .

كان الوقت يقترب، هيأت نفسي وكأنني أمضي الى امتحان هذه الليلة.

ركبت دراجتي الصدئة صوب المحطة. وصلت مع وصول القطار. رفرف الحرير الأسود أمام عيني هابطا من القطار. خفق قلبي. علق نظري بالحرير..

أبصــرهن على بعد أمتار فأراهن وقد انزوين مع أحمالهن في ذات الزاوية. افتعلت وجودي بمكان يكنّ فيه على مرمى نظري لأحدد مكان نومها، حددته بعد أن التفت بعباءتها وتمددت على بساط كن يجلبنه معهن كل يوم.

رحت الى مكتبي لأعد الوقت. انشـغلت بقراءة كتاب كنت احتفظ به في المحطة. شــربت الشــاي. اســتمعت الى الراديو، عملت بجهاز الشــفرة الخاص لمتابعة حركة القطارات المعتادة، وما بين الدقائق كنت أنظر الى ساعتي.

مضــى من الوقت أكثر من ســاعة ونصــف. ســكن بالمحطة كل شــيء. الجميع قد رحل عنها فصرت سلطان الليل .

شـجعت نفسـي واتخذت ذات الطريق نحو الجنة، لقد اختارت هذه المرة أن تنام في الطرف، وليس وسط رفيقاتها، ربما لتسهل علي المهمة.

مددت يدي صــوبها لأجدها نائمة، لمســت فخذها لعلها تحس بوجودي وتستيقظ، ولكن، بلعت ريقها وخنقت الوجع.

أي امرأة عنيدة هذه!

صـعدت بيدي الى بطنها المليئة بالدفء واللذة، عصـرتها بين أصـابعي شاعراً بأني أريد اختراقها..

تسللت الى الصدر، فتحت أزرارها، شممت عطرها ولم تحتج أو تستيقظ .

هذا يعني أنها لي، ولكن، لابد من همسة، أعرف من خلالها اسمها على الأقل. أبعدت عنها ثوبها، جعلتها عارية. كنت ألتهم جسدها البض، وأشعر بأن هناك عيونا في كل الكون تحسدني عليها.

لكنها ليست لي

لم تفتح عينيها مرة واحدة لتراني، لم تشعرني مرة واحدة أنها معي، وأنها لي، وإنها راضية بما أفعل.

الشبق أغرقني فدفعت بها قويا. كنت شرساً أكثر، بل تعمدت العنف، علّ الوجع يوقظها، يغضبها، يذكرها بما تفعل، علّ حواسها تصحو لترحمني وتقول همسة في أذني.

مارست معها بسادية وكأنني أنتقم من نومها. شعرت أنني أنهال عليها بعدوانيتي. لم يكن جنسا بل ضربا مبرحا في عمقها، ولكنها توغل في تعذيبي وتنام، تنام ، تنام رغم تقلصات جسدها .

وضعت فمي في أذنها، نفخت بها ولَم أستطع أن أهمس بشيء خوفاً من إيقاظ الأخريات. قبلتها، عضضت شفتيها، لعقت صدرها ورقبتها، انتقلت رائحتها المنعشة الى جسدي، تلمست تكوراتها، وكمن يتأكد من كمال بضاعته فيزهو، أثارني هذا أكثر..

تمددت بجسدي كله فوق جسدها، كانت أنفاسها تتغير، تبطئ أو تسرع، وينقطع نفسها أحيانا، بعدها تصدر آهة مكتومة بصعوبة، لكنها تقاوم وتنام.

إنها تتعذب، كي لا تستيقظ، أو كي لا تريني يقظتها، وكي لاتتحمل مسؤولية الفعل أمامي.

من منا يتعذب أكثر ؟

لا أدري

أفرغت وجعي بأوجاعها، ولملمت كل ماتناثر من جسدينا، ومسحت آثار فعلتي..

هل هي بريئة مما يحصل، أم شريكة لاتعترف وتكتم الكثير ؟

هل تعتقد أن هروبها بالنوم، سيبرئها في حالة انكشاف الفعل الممنوع هذا ؟

هل أن خوفها يبرر لها ماتقوم به ؟

أنا باقي سالم يحيى

أعترف إنني كررت فعلتي معها، ولَم أصل لما يوقظها.

كنت مشــدودا لذاك الصــمت المطبق، وذاك الجســد الغارق بالجمال والنوم.

وفي كل مرة أعود أجرجر خطواتي بتثاقل، وكأنني أنزف معها كل دمي، أعود لمكتبي حائراً.

ما الذي أفعله لأوقظ النائمة من نومها المفتعل مع ســكون الليل والحذر المحيط بي ؟

أكرر نفسي مع هذا الوجع والتساؤل.

أردتها لذة عابرة تغير روتين حياتي وتنعش روحي، فإذا بها تتحول الى حيرة، وتيه يدمرني وأريد الخروج منه بأي شكل.

أقلب كل الفكر في داخلي، فأشـعر أن نومها الذي أسـعدني في أول مرة، يقتلني حينما تعودتها، هل أحببتها ياترى ؟

لا أعتقد أنني مجنون لهذا الحد.

إذاً ما الذي يرميني للرغبة بسماع موقفها مني ؟

لو قالت لي اسـمها مثلا، همسـة واحدة دافئة في أذني، لو فتحت عينيها وابتسمت لمرة واحدة، للحظة واحدة

ولتغرق بنومها الى الأبد.

لو انها لوّحت لي بطرف إصــبعها الصــغير على أنها تحس بي وبجســدي وروحي.

يا الله مالذي حلّ بي حتى صرت أطالبها باليقظة ؟

يا الله ساعدني، فصمتها الذي كان يسعدني صار عذابي.

الظاهر للناس ليس كالباطن، وما اعتدت البحث والحفر لاكتشــاف البواطن ..

كيف أدرك معنى صـمتها وما الذي اسـتفزه نومها بداخلي ولماذا صـرت أريد منها حباً، وأريد منها تعبيرا يضبط توازني وهدأة مهجعي ؟

هل أهانتني بنومها دون أن تعلم ؟

هل دخلنا في حرب صــامتة، أكيل لها اللذة بوجع، وتكيل لي الصــمت بإهانة ؟

هل كانت تمدّني بسكونها حركة جسد، وانفعال روح، وتصريف جهد ؟

هل تحول الموقف ضدي ؟

هل أنبت صمتها خناجره في خاصرة حربي الخاسرة ؟

من المنتصر في ساحة الوغى الآن ؟

هكذا صــرت أتحســسـها.. إنها حرب لا هوادة فيها، ولا أعلم أهي حرب متكافئة أم جائرة.

الليل معي والصمت معها..

اللذة معي والوجع ضدها..

الخوف ضدها والغموض ضدي..

يا الله، ماذا أفعل؟

الحروب عاقر دائما، مولودها الأول الموت، ثم الخيام، ولا منتصـــر فيها غير الظلم.

الحرب لا تلد إلا أخيلة مريضة، وعلاقات مشوهة، ووجوه مقنعة. أنا وهي الآن حربان مختلفان، قد يكون الهدف واحدا، لكن المأســـاة تحتمل التنوع والاختلاف، وكما لا تلد الصـــحراء ريحان الأنهار، فالأنهار لاتعرف أعشاب الصحراء النافعة.

كل شيء له مكانته، وله حقه، وله حربه.

ماذا أفعل وجنودها تواجه جنودي، تلهث خيولي بوضـــوح وتشـــهّي، وتتخفى خيولها في الصمت والعتمة.

نعم، الآن كلٌّ له جنوده، وله أســلحته المدمرة، وله طرقه وأســاليبه في إيذاء الآخر.

صمتها المطبق ساقني الى الشعور بمضاجعة ميتة، فصارت رائحة المقابر تحضر في ذهني وتطرد البخور، الآن استحضر الجنازة، وتحريك الجثث من مكانها.

صار الجسد الذي لم أسمع منه صوتا أو حركة يذكرني بسنوات العسكرية وأوامرها، بالجنود القتلى، وبعربات نقلهم، لقد حركت رأسها من اليمين الى الشمال، كانت كالميت، لماذا توغل في خداعي ؟.

الخداع يولد البغض والعداوة، ولكن هل كان ذلك خداعا حقا ؟

يا لنزقي! فرغم كل استسلامها، ورغم كل ما فعلته بها، وكل ماغرفته من نهرها العسلي شرابا لذيذا رائقا صافي العطاء وبهدوء سماوي، شعرت أن الصمت يكون خداعا أحيانا، واللامبالاة قتلا، والتهميش شنقا حتى الموت.

فماذا تعطيني بعد هذا كله كي أرضى عنها ؟

آه. وهذه حرب أخرى دخلتها مع ذاتي، وطبيعتي التي اكتشفت ساديتها.

هذه الحرب التي لاتنتهي، والتي ستدوم طوال العمر، إذ التساؤلات تزداد يوما بعد آخر وتنغرس في الذاكرة والوجدان كوشمها الذي يسحبني من موضع القلب وعمق الروح

صوب بطنها اللدنة المرصعة بالوشم، صوب شفتيها الناعمتين، نهديها العصيين عن التأويل، رقبتها المنحوتة، نكهة أنفاسها المسك...

أدخلتني الجنة، وما كنت أدري أن روحي الطامحة بالمستحيل، ستؤجج النار بداخلي وتعذبني ..

الأرق غزا مضجعي، والوهن عبث بجسدي، والحيرة لوّحت برأسي فأسقطته ككرة الأطفال من علٍ..

دختُ وما عدت أرى غيرها بين الأحياء. دخت بهذه المرأة ، شبه الميتة، المجهولة الاسم، التي لم أسمع صوتها.

دخت بهذه الغريبة التي لم تبد دهاء ولا مكرا ولا عطاءً إلا بالصـــمت، المرتعبة التي فاق صمتها القوي كيد نساء الأرض جميعا..

أضـاجعها سِفاحاً، وخوفاً، ويأساً طلبا للماء والعشب لترتوي الروح وما ارتوت، حيث أقفلت علي كل صـنابير الحياة بصـمتها الرهيب الذي غدا كمحارب جســور مدجج بالســلاح ، يهزمني كل يوم ولا ينثني عن غط رماحه في رأسي وعينيّ وقلبي.

تحولتُ الى حطام، تراب خط عليه الوهم ألف علامة اســتفهام، صــرت الاستفهام السائر على قدمين.

أنـا الـذي مـاقرأت الفلســفـة إلا لمـامـا، لكنني قرأت الأدب العـالمي، واكتشفت لذة قراءة الكتب وهي لذة لا تشبه لذة الجسد بشيء..

كنت اقف عاجزا، أود لو أعود طفلا أدخل المدرســة من جديد علّني أتعلم شيئا آخر يعلمني معاني الصمت.

الصمت المطبق في عصر السرعة

الى أين والى من أتجه؟

ومن أستفتي ليشفي غليلي بإجابة واحدة عن مليون سؤال زرعه الصمت في عقلي؟

أنا المبتدئ، الذي انتهيت منذ البداية.

لابد لي من معرفة كيف يعيش قومها، عشيرتها، أهلها، وما هي أخلاقهم. بت أســأل عن تقاليد تلك الأمكنة التي ربتها وهل للصــمت في أعرافهم هيبة كبيرة تومض في الليل كالشهاب ؟

عرفت أنهم يتدربون على تعلم الصــمت واختيار الوقت الملائم لزين الكلام وحســن المعـاني، ولا أدري إن كـانوا يفضــلون الصــمت في المضاجعة!

أسأل مَنْ لأعرف متى ينتهي وقت صمتها لتعتاد علي وتنطق،

صرت أشك أنها خرساء، لابد أنها خرساء وخائفة مني، لهذا كان الصمت سلاحها الوحيد .

لم يقنعني هذا الاحتمال، فلو كانت خرســاء لرأيت حركات التعامل مع الأخرس فيما بينهن. للخرس رائحة تفوح، إنه كالفضـيحة وأنا أكثر الناس معرفة به، ثم أن جمالها البرّاق على بعد الأمتار التي تفصــلني عنها حينما تكون في الضوء جعلني أستبعد فكرة الخرس عنها.

كنت طوال الشـهر الذي مضـى سـريعا، ذابل الفكر، ضـائعا، ولكن رغم كل هذا تراني متمرد الجسـد، متمادياً في جنوني، وسـائرا في عماي الى ما لا أدري.

....

أنا باقي سالم يحيى

لا تعجبوا من تناقض شخصيتي، وتأرجحها بين الضعف والقوة، والحب والعداوة. لقد اختلطت اللذة عندي بالعداوة، كلكم مثلي، لكنني أكثركم الآن صراحة باعترافي .

أعترف بأنني بعد شهر من ممارستي تلك الشهوات مع النائمة، وفي يوم لم أتوقع جحيمه، هبط الحرير من القطار مرفرفا..

ولكن النساء الخمسة صرن أربع عجائز فقط.

افتعلت عدم اهتمامي بهن، انزوين بزاوية من المحطة، بلا قمر، ولا رائحة مسك، ولا أمل مشع من بين العامة.

يمر يوم، وآخر، وأسبوع، وأسبوعان، والغائبة لم تعد.

كيف لي أن اتجرأ وأسأل تلك النسوة عن الأخرى، أصغرهن، قمرهن، الأنثى، الجسد البض، الحياة التي دبت بعروقي ؟

تجرأت وسألتهن قائلاً:

كنتن خمسا والآن أربع فأين الخامسة ؟

نظرت لي أكبرهن بغضب، وباقتضاب أجابت أخرى بحزن وحسرة:

(جميلة الخرسة) ماتت

هل كانت خرساء ؟

نعم خرساء وخائفة من كل شيء..

لم يقلن سوى هذه الكلمات ليصمتن بعدها ويشحن بوجوههن عني.

لقد صدمنني وقتلنني دون علمهن.

ماتت الجميلة، يا حسرتي على شبابها.

فجعت بها. كدت أن أســقط على الأرض، ارتبكت، ابتلعت صــدمتي وشعرت بثقل قدمي.

اسمها كان جميلة إذاً، وهي خرساء.

آه

يعني أن جريمتي كانت ألف جريمة، فالخرس الذي ذقته بطفولتي ناراً، يعود ليقتلني ندما في الكبر!

أية صدفة جبارة قذفت بها الي ففعلت بها فعلتي ؟

أي قدر عاثر جعلني أعبث بمسـكينة، لاتعرف كيف تتصـرف وتخاف من كل شيء ؟

كيف أسامح نفسي ؟ وما الذي فعلته!

جميلة الخرسة.. حقا أن لكل من اسمه نصيب، كانت من الجميلات، والجميلات جدا.

آه، لم أســتطع إخفاء فجيعتي، وســقوط قلبي، وانقطاع حبل روحي، فسألتهن كيف ماتت ؟

إحترقت بالتنور حينما كانت تخبز ..

إحترقت!

ياويلي على شبابها وجمالها، ويا ويلي من هذا الفقد. قلت هذا في سري.

عرفت بعد ذلك أن الشابات في تلك القرية، حينما يعشقن ويمارسن الجنس مع الحبيب، تنتحر إحداهن إن حبلت، تسكب على جسدها النفط قبل أن تشعل التنور من أجل الخبز، فتهب النيران ملتهمة الروح والجسد، حارقة كل أثر للحب والجنس وكل لمسة مرت على الشقية المنتحرة.

ياويلي، كن يحرقن أنفسهن، ليمتن مع السر، ويبقى شرف العشيرة الذي تتحمل النسوة مسؤولية بياضه ناصعا كالثلج.

آه من حظي العاثر..

لماذا كانت طفولتي صامتة، جريمتي صامتة، لذتي صامتة، اشتهاءاتي صامتة، حزني صامتاً وحتى ضحيتي صامتة..

لم يعاقبني أحد.

لَم يتعقبني أحد، بل لَم أعرف حتى الآن هل حملت مني وانتحرت حقاً، أم كشفت إحدى النساء النائمات قربها بالمحطة ماكان بيننا وأخبرت عائلتها فرتبت لها هذه الميتة التي يضيع بها العار فلا يخدش اسم العشيرة؟

أنا سالم باقي يحيى

أفكر أن أهدي كتابي هذا الى إنسان يستحق، فلم أَجِد من يستحق، فأنا لا أشبهكم الآن لأنني نزعت عني كل الأكاذيب التي مارستها قبل الكارثة..

أنـا الآن وفي كتـابي هـذا مختلف عنكم جميعـا، وربمـا أكون أطهركم جميعا..

لا أريد أن أختار إســما معينا أهديه الكتاب لأجامله، أو لأطلب مغفرته، أو لأحافظ على البقاء معه، أو لأدعي الوفاء له بعد أن عرفت الكثير من الإهداءات الكاذبة .

كل الحب بين الجنســين يبطن بداخله حقدا ويتحول غالباً الى كره بعد فقده.

أعرف أن بعضــكم قد يغضــبه ما أكتب الآن، فكم من ادعوا الحب لزوجاتهم، كتبوا لهن إهداءات في أول صفحات كتبهم ليصدقن وفاءهم وحبهم. يقســمون لجميعهن أنهم أوفياء، وينادي احدهم الزوجة بكلمة روحي، أو حياتي، أو ســيدة قلبي، أو ملاكي الحارس، أو رفيقة دربي. لكنهم يخونونهن ألف خيانة بلا وجع قلب أو ضمير..

أغلبكم هكذا، إلا ماندر منكم، وماندر هذا لم يحالفه الحظ بأن يكون مشهورا، فالأضواء تغري بالطمع والاستحواذ على اللذة والتلاعب بمفاتن الجمال..

حتى الســعداء أغلبهم كاذبون، يبحثون عن حجة تمدهم بشــعور عدم الرضا ليشتكوا لصديقة أو عشيقة عن تعاستهم، ذلك لطمعهم بما ليس لهم.

كلهم يريدون الاستحواذ على كل شيء، وكل جمال..

للأسف لم يكن بالإمكان فضح هؤلاء قبل الكارثة، فالتقاليد الشائعة هي تقاليد وعادات من يريد خراب الأرض ويتســتر على الأخطاء جميعها ويشجعها

.....

آه يا أمي، أين صوتك يهديني ويوقد ذاكرتي لأعترف بكل شيء؟

لم أكن أتعظ يا أمي رغم كل يقظتي بخطاياي..

كيف اســتطعتُ أن أفعل ما لاتجرؤ عليه حتى الثعابين والأفاعي التي لا تلدغ نائما، فغالبا تكون لدغات الأفاعي لليقظين حيث يخشــى الأفعى شــرهم، أما النائم فهو كالميت، أو كالملاك البرئ. النائم لا يســمع ، ولا يرى، ولا يحتال ، ولا يفكر، ولا يكره، ولا يؤدي أي فعل، ولا يكذب، ولا يقتل أحداً.

أتذكر في الطفولة، إذا وجدت الأم أحد أطفالها نائما تقول للآخرين بحنو وملامح وجهها تدل على الشفقة:

(أتركوه ولا توقظوه، خطيّة، الحيوان نايم)

وهي لا تقصـــد بكلمة الحيوان الإســـاءة للطفل، بل تذكّر ببراءة النائم، وبتلقائية متوارثة في لهجتنا، تشبّه النائم بالحيوان الأليف المحبب.

النائم لا يؤذي أبدا فكيف أذيتها بكل حقارة..

لقد ماتت الخرســـاء البريئة، الجميلة، الضـــعيفة، الخائفة، المرتعبة، الصامتة، التي فسرتُ صمتها عداوة، كيدا، حقدا، وخداعا..

هكذا كان صمتها أبديا.

كان دهشــة من ســاعة الموت الرهيبة التي وضــعتها برأســها وأيقنت أنها ستصلها يوما ما حتما.

ترى كيف كانت لحظة الموت التي أخافتها ؟

هل حضـــرت انتحار إحدى معارفها، ورأت لهيب النار بالجســـد الأنثوي الجميل، فكان الصمت المعبر الوحيد عن ذاك التذكر ؟.

آه، لو كنت أعلم بخرسها، لو أنها صرخت، لكنها حتما خشيت استفاقة إحدى العجائز، اللواتي ســيســـلمنها وبصـــرامة للذبح، دفاعا عن شـــرف العائلة، وحتما هي تعرف أنه لن يجدي معها أي تصـــرف لو ان إحداهن عرفت بشئ ولمجرد التحرش بها.

هكذا اختلطت الأمور علي، فضاع كل شئ..

كانت هذه إحدى جرائمي التي سكتم عنها ولَم تبحثوا عن القاتل..

لقد ســـكتم عن قتل جميلة، أرعبتموها من وجودها على الأرض، فمدت السماء لها يداً للصعود فطارت..

لا أدري حتى الآن، هل نظرة الغضـــب بعيني إحداهن يعني أنها عرفت فعلتي ؟

هل أخبرتها جميلة عن كل شئ ؟

بكل الأحوال، فشرف العشيرة يدعوا للتستر على سبب انتحارها المفجع.

لقد فات الأوان الآن ولم يعد السؤال يجدي.

.....

أنا سالم باقي يحيى

سأعترف بكتابي هذا بكل ما ارتكبت من حماقات وجرائم .

أنا المخذول، الجبان، الحائر أمام الدمار الرهيب هذا، أتذكر كل شـــيء وبوضوح وسأكتبه لكم هنا.

ســـأدون ما كان لي، قد تبررون لي أفعالي إن عرفتموني بعمق، وقد تعتبروونني مجرما حقيرا..

أنا العاق الأكبر، فقد قتلت أمي ..

هل كان هذا العقوق اشارة لما حصل بعد ذلك ؟

هل العقوق حقا علامة من علامات قرب انتهاء الحياة على الأرض ؟

أشعر بضعف وجوع قاتل، لابد من البحث عن طعام، أين صوتك يا أمي ليخفف عني محنتي.

حاولت أن أنهض رغم هشـــاشـــة الأرض من تحتي وصـــعوبة الوقوف. كالمخمور أو الجريح، دفعت قدميَّ الى الأمام، ســـرت نحو البحيرة مرة أخرى، الغريب انني وجدت عشـــبا قريبا منها، كيف لم أره قبل الآن، متى نبت هذا هنا ؟

مددت يدي لذلك العشب كي آخذ منه حفنة تسد رمقي، وإذا بصوت أمي يحذرني قائلا:

لا يابني، دعه، لا تأكل منه فهو عشب سام.

ارتبكتُ، التفتُ من حولي، فالصـــوت غدا قريبا مني وكأن أمي تقف خلفي، عجيب !

صرخت بكل ما أملك من بقايا قواي:

أمي أين انت ؟

أمي تعالي أرجوك لأعتذر لك وأقبّل يديك ورأسك كما كنت تتمنين طوال عمرك.

أمييييي .....

وانهار جســـدي على الأرض وقد اختفى صـــوت أمي، فلم أَجِد في هذا الخلاء غير أنا وجوعي، ووجعي، وكل مايحيطني من ضياع ..

غلبني الدوار، غبت عن الوعي. لا أدري كم بقيت من الوقت بغيبوبتي هذه، لكن نسمة عليلة انعشتني، فأفقت، مع شعوري بأنني قد ارتحت وأن بإمكاني إكمال المسير والبحث عن طعام. سرت لبضعة أمتار، لكن ريحا فاجأتني، ريحا هبت قوية كادت أن تطيرني ولقوتها حملت جذع شجرة لتسقطه بجانبي، تمسكت بذلك الجذع، حتى هدأت العاصفة، أحسست بلزوجة في يدي، نظرت فإذا بسائل يشبه العسل يخرج من جذع الشجرة تلك. قربت إصبعي من أنفي ففاحت رائحة لذيذة، لعقت الشـــراب الكثيف ذاك، كان مذاقه حلواً، طيباً، قريباً لطعم التين، بحثت بالجذع عن الشـــق الذي خرج منه ذلك الســـائل فوجدته، عندها مددت أصـــبعي لأحصـــل على المزيد، لكن حشـــرات كالنمل الكبير

تجمعت على إصبعي، نفضت يدي فطارت بعيدا وتركت الشق يخرج منه ذلك الشراب السائغ، عدت لألعق منه شيئا ..

منحني ذلك النسغ نشاطاً وأشبعني. سرت الى البحيرة لآخذ بكفي قليلا من الماء، راضيا بما لقيت..

علي الآن أن أتعلم القناعة بعد كل مارأيت.

ما كنت أعرف يوما معنى الرضا، ومارددت كلمة الشكر.

سرت باحثا عما لا أدري، هدأت معدتي ولكن وجع الروح يدق فؤوسا في أعماقي. لابد لي من فعل حسن ولو كان دفن من قتلت بهذا الجحيم الذي أراه الآن.

ها هي الأرض غير ثابتة كما كانت، أجد خسفا هنا وآخر هناك. النيران تشب ببعض الأماكن، ولا أعرف أي طاقة تغذيها هل هي سائل حارق أم خشب أم مواد متفجرة أم هي صهارة وبقايا بركان.

مازلت في جهلي بما حصل للأرض، وما زلت لا أعرف ماهذا الهول ولا أين أنا، وما زلت أتوق وآمل بسماع صوت أمي ..

كلما نظرت الى ماحولي، شعرت بوجع .

سمعت حركة في المكان، كأن أحجارا قد تحركت، أو ترابا قد انهال من الأعلى. التفت الى كل الجهات لكنني لم أر شيئا.

الوحشة تزداد ساعة بعد أخرى، الشعور بالذنب مدمر حين تعي حقيقة أخطائك وتعرف أن مافعلته كان أمرا خطيرا وقد لا يغتفر ابداً.

ماذا ينفعك المال الآن، وماذا ينفعك أي شيء مادي؟

أين صوتك يا أمي ليؤنس هذه الوحشة ويحضن روحي لدقائق أنسى بها ضياعي ووجعي..

الآن لانفع لأي شيء بعد هذا الخراب. سأبقى أبحث عن ابنتي وعن عمل خيّر، لابد لي من عمل أكفر به عن ذنوبي وأنا في متاهتي الكبرى.

الآن، لا بنوك، ولا عملات، ليس سوى التقاط ما موجود من بقايا تركتها الطبيعة صدفة وبالخطأ لتسد الرمق.

.....

أنا سالم باقي يحيى

أنا الخاطئ الحقير فقد قتلت أمي ؟

أنا قاتل جميلة.

أنا قاتل الرضيع اليتيم

أنا قاتل محمود البريء

أنا من قتل أرواحا بريئة أخرى اعترضت حياتي.

ولكن أفظع شيء، وأوجعه لي هو أنني قتلتُ أمي..

قتلتها حزناً بجحودي، وهجري، وقسوتي، وغيابي عنها حتى الموت ؟

أتذكر أحد المفكرين حينما كتب يقول مامعناه:

(تقضي الأم من عمرها عشرين عاما لتصنع من ابنها رجلاً، ثم تأتي فتاة حمقاء وبعشرين دقيقة تجعله أحمق)..

هكذا نحن نفعل الجرائم ولا نخشى مايأتي به المستقبل من أحداث..

وهل لنا حجة وعذر ؟

كل شيء كان مكتوبا بالكتب القديمة التي سخرنا منها.. مكتوب أن القاتل سيقتل، ومكتوب أن الظلم يورث الظلم، ومكتوب أن عقوق الوالدين يولد الخراب وعقوق الأبناء، ومكتوب أن السرقة من الكبائر، وأن القسوة ستخلف قسوة أكبر.

ها أنا أســير بين الخرائب باحثا عن إبنتي. هل كان عقوقها امتداداً لعقوقي ؟ .

لَم أتعظ رغم كل الدمار الذي حلّ بالأرض، فأي شيطان يقبع بداخلي ؟

كنت أظن أن القوة توأم الانتصــار ورفيقه الذي لا ينهزم، عملت طوال عمري على هذا الأساس، وكنت أتصرف كما لو أن لا أحد يرى.

ظننت بأن الكتب القديمة تجارب أكل الدهر عليها وشرب لشعوب بائسة متخلفة لم تصــل بعلمها كما وصــلت الدول المتطورة آخر قرن ما قبل الكارثة.

لم نكن نصدق تراثنا إلا ما كان على لسان دول أسميناها متقدمة..

العبرة بالنهاية، ولكن، مافائدتها بعد فوات الأوان ؟.

كنت غالبا ما أنتصر، ولكنني اليوم في أسوأ حال يكون عليها البشر.

اليوم أربط كل ماحصــل فأجد أن القدماء على حق، تحقق كل ماقالوه، والبؤساء المغويون نحن، السائرون الى مالا ندري .

كم سنبقى ؟

وهل البقاء هذا انتصار أم عذاب ؟

هل نحن حقا من الناجين أم نحن من المعذَبين ؟

أي مرض سيحل بِنَا ؟

هل لدينا مانأكل ؟

كل شيء لم يعد واضحا، إذ ليس هناك مايوحي بالاستمرار والبقاء.

سرت طويلا، تعرقتُ، كلّت قدماي.

أصيب ظهري بالوجع، ولن أَجِد ابنتي، ولا الرضيع أو محمود..

كل المسافات تغيرت. فلم أعرف معنى اليوم، والساعة ،والمتر من الكليومتر.

الكارثة أربكت كل شيء، حواسي، الزمن ،المسافة، الرؤية، التوقع، كل شيء ليس هو، وحده قلبي ما زال يبحث عن ابنتي التي هجرتني وهربت مني، ابنتي التي فعلت بي كما فعلت أنا بأمي وقاطعتني قطيعة أبدية. لعلها الآن تكون حيّة في مكان ما، لعلها تبقى لي..

أبحث الآن عن ابنتي وما زلت أحبها وأتمنى أن التقيها وأسامحها بل آخذها بين ذراعي وأضمها الى صدري.

كنت قبل ذلك أسير ولست متأكدا عن أي شيء أبحث بالضبط، فهناك ما لا يحصى من الأشياء التي علي البحث عنها.

لكنني أبحث الآن عن ابنتي بكل جدية وبكل وهج.

مهما طال الدرب سأسير به، ومهما كان مظلما، مليئا بالنور، شائكا، أو منبسطاً. كل شئ ممكن إلا توقفي عن البحث فلا خيار لدي.

في هذه الحالة المزرية نزل دم من عيني فتذكرت صديقنا صاحب العين الواحدة، الذي ندعوه احتراماً" كريم العين"، كان كريم العين وطيب القلب كما يقول صديقنا المشترك سعد. كنت أضحك لطيبة سعد الذي

يســـرني بصـــوت خفيض قائلاً إنه يتقصـــد التركيز على العين الزجاجية لصاحبنا، وذلك ليشعره بأن الزجاجة انتصرت على الظلم وجعلته مثلنا، وكي لايشـــعر بالفرق عنا، وليظن بأننا لا ندري بعاهته. كان ســـعد يؤكد علينا ويترجانا قائلا:

دعونا نشـــعره بطبيعيته، أرجوكم انظروا الى تلك العين الزجاجية وكأنها حية تبصر ليشعر بمساواته معنا، ولكن، هل شعر صديقنا كريم العين يوما بذلك؟ أبداً، فقد بقي شخصا كارها للآخرين، متآمرا، يريد أن يصعد على أكتاف الدنيا وكأنهم هم ســـبب فقده تلك العين التي اســـتبدلت بالزجاج الميت.

أين أنت ياسعد الطيب ياترى؟

هل متَّ في هذه الكارثة، أم ما زلت حيّا قابعا في ركن ما من هذا العالم، وقد شـــفعت لك طيبتك وتفكيرك الرومانســـي المرهف بعدم جرح الآخرين؟

.....

أنا سالم باقي يحيى

قد أكون تأخرت كثيرا بالاعتراف، لكنه على كل حال جاء زمنه، رغم انه لا يشـــبه كل الاعترافات، إذ لا محكمة، ولا بشـــر ولا جمهور ولا دولة ولا نظام.

أنا هنا وحدي أعترف لهذه الأوراق التي لا تملك الدفاع عن نفســـها، وقد أمزقها ساعة غضب وجنون..

سأقول الحقيقة، وأكون دقيقا بتحديدي ساعة عودتي لطبيعتي البشرية التي فطرت عليها والتي اعتدتها، قبل أن أصبح ذئبا كي لا تأكلني الذئاب..

لا تستغربوا من تأرجح روحي بين الشدة واللين، بين القسوة والحنان، والرغبة بالســـير على درب الفضـــيلة بعد كل هذا الخراب الذي زلزلني، فهكذا نحن البشـــر حينما نتعرض للخطر نرتبك ولا نعرف ماهي طبيعتنا الحقيقية، هل هي الخير أم الشر، فترانا نتمثل بعض الخير وما أن تؤنبنا أنانيتنا، نعود لأنياب الذئاب المخبأة فينا، أو يكون العكس فيعود لنا الشعور الخيّر ساعة خطر وموت وشيك.

الزمن جعلني أنسى كل ذاك ولَم أتعظ، والزمن كفيل بنسيان كل شيء.

ولكن هل نستني ابنتي الوحيدة التي لَم أفلح بإعادتها الى قلبي؟

أســـير بنصـــف رؤية، فالحرائق والدخان والرماد الباقي من الكارثة، لم ينته، وأنا لا أدري الليل من النهار.

بالكاد أستطيع رويـة القلم وتـدوين مـا أريـد قولـه في هـذا الكتـاب المستقبلي، إن كان هناك مستقبل بعد.

هل إن بقائي بهذه الأرض المحترقة عقوبة لي يا ترى ؟

من أين لي بالسلام الروحي بهذه الوحشة المتفردة ؟..

أسـمع أصـواتا مخيفة بين الحين والآخر، أصـواتا لا أسـتطيع تمييزها، هل هي أصوات وحوش أم أصوات حركة الأرض والكواكب، أصوات تصم الآذان، تضغط على أذني ورأسي، تتعبني..

أنوار تخطف بصري تبرق هنا وهناك. أغذّ السير علني أصل الى بقعة أقل عذابا، لم أَجِد إلا عذابا أكبر. أراضـي مليئة بالحفر الخطرة، حفر يغلي بها القير والصهارة وتتصاعد منها أبخرة حارقة، لاذعة الرائحة.

لو أنني أعرف بأي جهة من الأرض أنا. لو أعرف هل هناك أحد غيري بعد.

آه، ليتني ماقتلت محمودا

ليتني أرتضيته رفيقا برحلة العذاب والوحشة هذه.

أين أمضي في ظل هذا الخراب، وكيف أهدأ؟

غادرت الزاوية التي وقتني من الموت بداية، والآن أضـعتها، لن أسـتطيع العودة اليها، بل لا أدري بأي إتجاه تكون.

الدوار يذهب ويعود لرأسـي. ارتطمت بحجر كبير فوقعت أرضـا، لم أستفق إلا بعد أن شعرت بزخات المطر تتساقط على رأسي. يزداد المطر هطولا فيطفئ بعض الحرائق في حفرها.

أقوم من عثرتي، أشعر بعطش رهيب أبلل فمي بشيء من المطر، اصرخ بجزع:

يا رب أين أنا ؟

أمد يدي على وجع برأسي.. أحس بشيء لزج كالدم، هذا يعني انني جرحت.

أصيح بأعلى صوتي وبقدر ماتبقى لي من طاقة، مناديا إن كان هناك أحد يسمعني.

دون جدوى، لا أحد يجيب، ولا صدى يتردد.

كل شيء قد مات.

فجأة أسمع صوت أمي باكيا، هل جاء بعد غياب لأنني اعترفت بجرائمي وندمت عليها ؟

صوت أمي التي قتلتها قهراً، وحده الباقي لي، وحده المشفق علي في هذا الخراب الهائل. أصرخ باكيا أمي..

يهدهد صوتها الحزين روحي فأشعر بشيء من الراحة وأبقى مشدودا لها.. تكمل أمي حكايتها:

يا بني إستمع لنهاية الحكاية، فلكل شيء نهاية وها هي النهاية تقترب:

فبعد كل حيرة الشاب الطيب علي وحزنه، صمم إنقاذ صديقه الأمير، فهو مفطور على الوفاء وليس له قدرة على مخالفة ضميره الحي الذي يشع بالنور. وهكذا كان له حين جاء يوم زفاف الأمير.

آه من هذا اليوم الذي يدرك علي أنه آخر يوم له في هذه الحياة، كان ينظر لكل ما حوله، يغيب عن الواقع بين لحظة وأخرى ويقلب صفحات عقله الزاخر بسرية ورعب هذا السر، فتراه ساعة ساهما وأخرى يدقق بالتفاصيل ليعرف كيفية تنفيذ المهمة، وليودع بعينيه كل من أحب وكل شيء أعجبه.

جاء يوم الزفاف وكان الأمير الوسيم يرتدي أجمل بدلة رأتها العين، بأزرار ذهبية تتلألأ على صدره. إنه أبهى الشباب ذلك اليوم، أما الحفل فكان يعج بالأعيان والوزراء، وعليّة القوم من ألملوك ونوابهم وسفرائهم الذين جاءوا من بلدان عديدة. الخدم يتسابقون بإداء أعمالهم بفرح هذا اليوم السعيد. الحرس منهمكون بحراسة العائلة الملكية والقصر من جهة وحماية الضيوف الكرام من جهة أخرى.

الكل مشغول بعمله ويؤديه على أتم وجه وأحسن صورة.

كان علي وحده المنهمك بالتفكير بالموت وكيفية تنفيذ المهمة القاتلة.

الموسيقى تعلو، والراقصات نزلن الى ساحة الرقص.

الأهازيج والفرق الغنائية تعلو بحناجر الفرح والدعاء للأمير وزوجه. رجال الدين يرفعون أصوات الدعاء لمليكهم ويرجون الرب دوام ظله عليهم.

المشروبات والمأكولات والحلويات ملأت المكان ولَم يبق فقير ذلك اليوم إلا وشبع حيث أمر الأمير بإطعام السكان جميعا فامتلأت الشوارع بالأطعمة على حب الأمير ..

الوقت يقترب، والساعة كأنها لحظة، ورأس علي لم يهتد الى طريقة ينفذ بها مهمته بعد، حتى حان وقت توصيل الأمير الى عروسه وإدخاله جناحه الأميري المبهر.

غيّرت الفرق الموسيقية لحنها لتعزف لحنا واحدا جميعا، نوتة يسير عليها الأمير وخلفه الجميع صوب قصره.

تحرك قلب علي بالوجع أكثر، لكنه عزم وتوكل، سار بجانب الأمير يقبله ويحضنه، وبقلبه يقول له وداعا والدموع تتفجر من عينيه، مفسرا إياها دموع الفرح.

يقترب الموكب من باب القصر. تعلو الموسيقى وأصوات الفرح أكثر. تتقارب المسافات بين المحتفلين. إنها لحظة وصول العريس لعروسه. لم يبق لعلي أي وقت بعد. يركض بسرعة ليفاجيء الجميع، يسبق الأمير في الدخول الى القصر، ثم الى الجناح المخصص للعروسين، وبرمشة جفن، وبغفلة من العيون، يهرع علي الى غرفة العروس وبجيبه سكينة، يحز ضفائر العروس، يضعها تحت المخدة ثم يمضي خارجا مع ذهول الجموع كلها.

لقد انتهى كل شيء.

انتهت المهمة التي تنهي حياة علي. تزامن خروجه من جناح الأمير مع وصول الأمير والحشد المحتفي به الى باب الجناح.

صُدِم الأمير بغرابة فعل علي!. ذهل كل من كان مع الأمير.

هجم الحرس يريدون تمزيق عليّ، لكن الأمير أحاط به للمرة الثانية كما الأم الحنون دافعا عنه كل أذى.

وبقدر مايدفع الأمير الحرس، بقدر مايحنق الناس عليه لهذه الطيبة الزائدة ولهذا الحب الذي تسبب في هتك حرمة الملك وعائلته والاستهتار بكل مقدراته.

تقدم الملك من ابنه غاضبا وقال له بعصبية:

سلمني المجرم وإلا لن يحصل خير، وأعدك أنني سأكون رحيما به.

فكّ الأمير يديه عن علي منصاعا، وسلمه للملك. وضع الحرس يدي علي بالأصفاد واقتادوه نحو الساحة وهو صامت لا يلوي على شيء..

دق الحرس الطبل أمام الجموع، معربين عن طلب الهدوء لسماع محاكمة علي الآن، وذلك بعد أن علت أصواتهم المطالبة بتقطيع المجرم أو تسليمه لهم ليقطعوه إرباً..

جلس الملك على المنصة التي وقف أمامها علي أسيرا بعد أن أثخنه الحرس ركلا وضربا وإهانات، برغم كل صراخ الأمير بهم وزجره لهم..

ضربت المدقة معلنة بدء المحاكمة، تم مواجهة علي بالسؤال الأهم:

لماذا فعلت ذلك ؟

صمت علي، والأمير يصرخ:

أرجوكم دعوه ولا تؤذوه، فأنا أعرف أنه يحبني ولا يمكن أن يقوم بأمر إلا وبه فائدة لي..

بكى علي لبكاء الأمير

ســخر الناس من كلام الأمير وتندروا عليه بكلمات نابية بســبب حبه لعلي، والذي يعتد الأمير به، رغم أنه جعله في نظرهم إضحوكة.

كرر الملك سؤاله بغضب

لماذا فعلت ذلك ؟

يصــمت علي ويحني رأســه كي لا ينظر لعيون الناس والدموع تبلل وجهه وتنزل على ملابسه.

وللمرة الثالثة يسأل الملك، ويصمت علي.

استشاط الملك غضبا وأصدر حكما بالإعدام على المجرم الجاحد الذي لم يراع حرمة الملك، والأمير، والوطن، والمحبة التي تلقاها من القصــر الملكي، المجرم الذي ضــرب القيم والأخلاق والأعراف عرض الحائط، وعاث فســادا بها، ولَم يحســب حســابا لشــيء، إنه المجرم الخارج عن قوانين المجتمع البشري كله.

أصدر الملك بيانا بتنفيذ الحكم حالا ً وأمام الجمهور..

وبســرعة البرق نصــب الحرس مشــنقة علي، وصــاروا يدفعونه لتنفيذ الحكم، لكن الأمير صرخ باكيا:

أرجوكم أعطوه فرصــة أخيرة ليقول شــيئا قبل تنفيذ الحكم، صــار الأمير يقبّل يد الملك صارخا:

أبي أرجوك، أشعرُ أن هناك سرا لا يريد علي كشفه لأسباب معينة.

أرجوك لا تدع الحرس يشنقون صديقي وتوأم روحي.

أرجوك يا أبي سأموت عليه حزنا وستفقدني بعد ذلك.

لكن الملك قد قرر وقُضيَ الأمر، ومع هذا صاح بعلي سائلا إياه:

إنها فرصتك الأخيرة قبل الإعدام، قل شيئًا تحب قوله، فهذا عرفٌ متبع لكل مجرم قبل الاعدام.

فتح علي فمه قائلا:

لا داعي للحبل والمشنقة، فأنا سأقول كل شيء، ولكن حين أكشف السر الأول الذي جعلني أحطم الحصان الذهبي سيتحول نصفي الأسفل الى حجر، وإن كشفت سر قطع ضفائر عروس الأمير اليوم، يتحول نصفي الأعلى الى حجر وسأكون قد انتهيت.

صرخ الأمير باكيا: أرجوك أبي إطلق علي، لكن الجموع الغاضبة تصيح:

هذا علي يخدعكم للمرة الثانية، لاتعفون عنه، انه يضحك على عقولنا جميعا، ويؤلف خرافة يريدنا أن نصدقها، فأي تحول وأي حجر! ثم يقهقه جمع من الناس سخرية من الأمير .

تعلو الأصوات هاتفة:

إشنقوه ولا تأخذكم به رأفة.

يقترب الأمير من علي كمصدقٍ وحيدٍ له ويقول متوسلاً :

أرجوك ياصديقي لا تقل شيئًا ولاتكشف السر، أرجوك لاتتركني وحيدا وتمضي..

يصـمت صـوت أمي بعد أن شـدني لإكمال الحكاية، فأجدني قوياً لأقول بأعلى صوتي :

أميّ أرجوك لاتذهبي قبل أن أعرف ماحلّ بعلي، لكن الصوت يغيب.

أنا سالم باقي يحيى

رغم الطاقة التي منحني صـوت أمي إياها، أراني أتحرك بطريقة آلية، أفرك عينيّ لأرى جيدا.

سرت قليلاً، عثرت بشيء أخضر، عشب يابس لكنه أفضل من اللاشيء، وضعته في فمي مضغته وامتصصت مابه فشعرت بالنعاس..

لا أدري كم سـاعة نمت، لكنني شـعرت بشـئ من الراحة، كأنني خلقت من جديد، وجدت نفسي أقول:

صـباح الخير يا أمي، مع أنني لا أدري إن كان الوقت صـباحا أم مسـاءً، كأن روحا بداخلي هي التي تحدثت، وإذا بصوت أمي يرد السلام:

صباح الخير يا ولدي، سأكمل لك ماحلّ بعلي:

مثلما قرر الملك معرفة أسباب جرائم علي، قرر علي الاعتراف بها والرحيل الى عالم آخر.

فتح علي فاه معترفا، ناظرا للأمير ودموعه تنزف روحه:

سأقول لكم لماذا فعلت كل هذه الأفعال السيئة وبأي دافع.

لقد حطمت الحصـــان الذهبي لأن الأمير كان لو وضـــع رجله على الركاب لمات، فالحصان مصنوع من مادة قاتلة، وإن لم تصدقوا، إذهبوا لبقايا الحصان جربوه مع حيوان لترون هل هو قاتل أم لا.

ما إن أنهى علي جملته تحول نصفه السفلي الى حجر..

التاع الأمير، ضـاق صـدره بالموجودين جميعا فصـرخ بالناس وبالملك طالبا أن يرحموا علي ويدعوا نصـفه الأعلى كما هو، لكن والد العروس وقف غاضـبا وصـاح كيف نتركه بعد أن انتهك حرمتنا وأجرم بحقنا ؟ لابد أن يجيب على سـبب فعلته مع ابنتي ليلة زفافها، ومن يقدر أن يصـمت على هذا الفعل الشنيع ؟

أمر الملك ببقايا الحصـــان، وكان رئيس حراس الملك الذي أشـــار على الملك بشـــراء الحصـــان قد أحرزَ بقاياه بكيس كبير من الجلد ، خبّأه في مكان لايعرفه أحد، لكن حراس الأمير أحضـــروه هو والكيس، ثم قربوا شـــيئا مما في الكيس من جلد قطة فماتت فوراً حين لامس جســـدها المادة..

عجب الملك وأمر الحرس بتقييد رئيسـهم الخائن ووضـعه بالسـجن حتى محاكمته، ثم طلب من علي أن يصـمت ولا يتكلم بعد أن أصـبح نصـفه حجرا، لكن الجموع ما زالت تطالب برأسه وكذلك أهل العروس.

كاد الأمير أن يموت لوعة على صديقه المظلوم من قبل الجميع.

فتح علي فاه للمرة الثانية معترفاً أمام الملأ:

لقد قصصت ضفائر العروس لأنها ستتحول الى ثعابين تلتف على رقبة الأمير وتقتله ليلة العرس، واذهبوا لترونها تحت مخدته تسعى.

قال علي هذا وسقط على الأرض تمثالا حجريا لاحياة به والناس ذهول.

هرع الأمير يحتضن الحجر ويقبله، يبكي مفجوعاً ويدعوا الله أن تدب الروح بالحجارة مرة أخرى.. ولكن هيهات..

ذهب الملك ومرافقيه ووالد العروس الى مخدع العروس ليجدوا الأفاعي المرعبة تسعى كما قال علي..

لقد صدقوا عليّا بعد فوات الأوان..

لم يترك الأمير تمثال علي الحجري، بل جلس بقربه يندبه ليل نهار.

هجر الزوجة، وألأهل، والحياة، وصار الحجر والتعبد له هو حياته فقط.

حاول الملك كثيرا أن يعيد الأمير للحياة الطبيعية، لكنه عبثا حاول، فقد سبق السيف العذل، وصار قلب الأمير خاويا من كل شيء إلا من علي، وطريقة موت علي، وعدم فهم حقيقة علي ووفائه .

كان الندم القاتل وعذاب الضمير لايترك الأمير يغفو قليلا إلا ويستيقظ على كابوس، صار مكانه الوحيد تمثال علي، ومن شدة ولعه بعلي وحزنه عليه لم يكن يعرف الطعام أو الشراب، حتى خارت قواه، تغير شكله وهرم باكراً.

أمر الملك أن ينتصب تمثال علي في ساحة أمام القصر، وأن تكون له قاعدة ذهبية ويحاط بسياج مرصع بالجواهر..

بقي الأمير ملازماً تمثال علي، باكياً، متألماً، حتى وجد في يوم ما ميتا بجانبه حزناً، ووفاءً ..

وهكذا يا بني أصبح جسد علي مزارا للناس على مدى الأزمان، وصار رمزا للأمانة والوفاء، يبكونه كلما يمرون بجانبه، يقسمون به، ويسمون أسماء أبنائهم باسمه.

أما الملك فقد حلّت عليه اللعنة، تضعضعت أركان حكمه، ثار عليه الناس، وخانه الحراس، ثم مات وانتهى حكمه

مرت السنوات. تغيرت الأحوال. تعاقب الملوك والرؤساء، وبقي تمثال علي مزارا، ورمزا للوفاء والصداقة، يقسم به العشاق والأصدقاء في جلساتهم.

صار الناس يزينون قاعدة التمثال وباحته كل عام، وذلك في ذكرى تحول علي الى حجر، كما خط عليها شاعر معروف :

البقاء للأوفى..

تكرر صوت أمي بما يشبه الصدى لأول مرة: الأوفى .. أوفى .. أوفى....

غاب صوت أمي في الفضاء ..

كنت أنتظر أن تسألني كما في الطفولة: هل فهمت روايتي يابني ؟.....

بقيت انتظر صوتها لأقول لها انني فهمت يا أمي.

فهمتُ، ولكن بعد فوات الأوان..

كأنني غبت عن الوعي قليلاً، ثم عدت لأنتظر الصــوت، لكنه غاب ولم يعد بعد ذلك أبداً..

.....

أنا سالم باقي يحيى

عدت لضياعي تائها في اللازمان واللامكان ..

بين فترة وأخرى تســعفني ذاكرتي بأبيات من قصــيدة الشــاعر القروي المحفوظة بروحي والباقية مع غصة أمي المتأبدة في الكون كما أحسها:

ولو يارب في اليومِ العظيمِ

تلوتَ عليَّ حكمكَ بالجحيمِ

فلي أملٌ بأن ستعود يوماً

وتغفر في جهنم عن أثيمِ

وقلبكَ يستحي من قلبِ أمّي

قلت الأبيات باكيا، يائسا، نادما، مشدودا للموت أكثر من الحياة.

أمي لماذا غبت عنّي ؟

لم أكن في وعيي تماما حينما رأيت شبحا واقفا أمامي!

شبحا غير واضح الملامح. إرتعبت في البدء، ثم دنوت منه سائلا:

من أنت ؟ واين نحن ؟

لم يتفوه بكلمة، أشــار لي بيده أن أتبعه، تبعته كالمســيّر دون أن أتأكد هل هو حقيقة أم وهم..

سرنا لدقائق، توقف، فتوقفت. التفت إلي.

وضـــحت الرؤية أكثر، فإذا بالمفاجأة التي هزتني، يا الله، إنها ابنتي، هممت لاحتضانها.

كانت تقف أمام حفرة عميقة تتصـــاعد منها أبخرة داكنة الألوان، ملت بجسـدي كله لأحتضـنها وأنا غير مصـدق بهذه السـعادة التي هبطت علي فجأة. لم أشعر إلا ويد قوية دفعتني بقوة هائلة نحو أسفل الهوة. سقطت بسرعة الى الأعماق، أعماق معتمة سحيييييقة ...

<u>ملاحظة</u>

في دفتر المذكرات الذي أكتشـــف مرميا عند الحفرة التي وجد فيها عظام وجماجم بشـــرية، أضـــيفت جملة بعد آخر ســـطر في الكتاب، وبلون مختلف عن لون الحبر الذي كتبت به الرواية، وبخط مختلف تماما عن خط الرواية والجملة هي

(هذه النهاية يا بني)

انتهت في

11-4-2019